

رَبِّهِ نَدَاءً خَفِيًّا^(١٧٥) ﴿١٧٦﴾ فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يجهر بدعائه ، فإن كان في ملاء تعرض للفتنة ، ورضى بأقل الثواب . والآخر يخفي ويتضرع ، فكل دعاء المختين^(١٧٧) خفية وتضرعاً ، جعلنا الله وإياكم كذلك .

الباب الثامن والعشرون إحضار القلوب مع الألسن

إخواني : إذا دعا الناس ربهم بالألسن ، وبسطوا الأيدي ، وقلوبهم عنه ساهية ؛ ألا فأحضروا القلوب مع الألسن ، فإنه أبلغ . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : « إن الله عز وجل لا يستجيب لعبد دعاه عن قلب غافل »^(١٧٨) . وقال بعضهم : « إن الله لا يسمع من ساه » . وقال بعضهم : « إن الله لا يسمع من داع ، إلا داع دعا من فيه وقلبه » ياقوم فراقبوا الله ولا تحرموا أنفسكم إجابة الدعاء بالغبلة عن الله ، وتضرعوا إليه بالقلوب مع الألسن ، فقد وعد الكريم عز وجل إجابة المضطر إذا دعا^(١٧٩) ، فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما داع بلسانه ، وقلبه غافل عن الله ساه . والآخر وجل يتضرع بقلبه ولسانه . جعلنا الله وإياكم من الوجلين . آمين .

الباب التاسع والعشرون التدبر والاعتبار عند التلاوة

إخواني : وإذا تلا الناس كتاب الله لفضل ثوابه ، ألا فأريدوا بتلاوتكم التدبر والاعتبار بأمثاله وعجائبه ، ووعده ووعيده ، وأمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، والعمل بحدوده وفرائضه ؛ فإن ذلك أبلغ في رضوان الله تعالى . وقد روى في قول الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾^(١٨٠) .

(١٧٥) إن : بمعنى ما . أى : ما كان الدعاء منهم إلا همساً . وكال الآية : ﴿ ذكر رحمت ربك عبده زكريا ﴾ .

(١٧٦) مريم : ٢ ، ٣ .

(١٧٧) المختون : الخاضعون المتواضعون في الكتاب العزيز : ﴿ وأخبروا إلى ربهم ﴾ وفيه ﴿ وبشر المختين ﴾ .

(١٧٨) أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً ، بلفظ : « إن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل » . انظر (المسند) (١٧٧/٢) . وأخرجه الطبراني عن ابن عمر ، قال الهيثمي : فيه بشر بن ميمون وهو

مجمع على ضعفه . انظر (مجمع الزوائد) (١٤٨/١٠) .

(١٧٩) كما قال سبحانه ﴿ آمن يجب المضطر إذا دعاه ﴾ (القل: ٦٢) .

(١٨٠) البقرة : ١٢١ .

قال : الذين يعملون بما فيه ، أولئك الذين يؤمنون به^(١٨١) . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : « تأتى كل آية من كتاب الله عز وجل ، وتسألنى فريضتها ، وتشهد على الآمرة بأبى لم أفعل ، وتشهد على الزاجرة بأبى لم أنته ، وأعوذ بالله من قلب لا يخشع » . إخوانى ولقد بلغنى أحاديث عن رسول الله ﷺ - إن صح ذلك من قوله - أيضاً وإنما القاصمة لظهور أمثالنا ، بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفس محمد بيده إن الزبانية أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان حتى يككبوا معهم في نار جهنم ، فيضجون إلى الله فيقولون : ربنا بأبى شيء أرديتنا جميعاً في النار ، مع من كان يأكل رزقك ويعبد غيرك ، وقد تلونا كتابك في دار الدنيا؟! فيقول الله عز وجل : صدق عبادى السوء فلم تحلوا حلاله ولم تحرموا حرامه ، ولم تقفوا عند عجائبه ، ولم تعملوا بحكمه ، فليس العالم كالجاهل الذى لا يعلم فذوقوا العذاب بما كنتم تعملون »^(١٨٢) . وبلغنا عنه - عليه السلام - أنه قال : « ألا انقضت الأيام والليالى حتى يضع الرجل المصحف أمامه يقلب ورقه وإنما لتلعه ولا يمر بآية إلا لعنته ، ولا بحرف إلا لعنه . قيل : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : يمر بهذه الآية : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^(١٨٣) وهذا ظالم ، تقول الآية : كذبت إنك ظالم ثم يمر بهذه الآية : (فيها اجتناب الخمر والميسر) فتقول الآية : (كذب الآخر لعنه الله ما يجتنب محرماً ولا ميسراً .. ويمر بهذه الآية ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾^(١٨٤) فتقول الآية : (كذب الآخر لعنه الله ، إنه استطاع الحج فما حج ، فما يمر بآية مخالفاً لها إلا لعنته » . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « من أطاع الله فقد ذكر الله ، وإن قل صومه وصلاته وقراءته القرآن ، ومن عصى

(١٨١) روى نصر بن عيسى عن ابن عمر عن النبي ﷺ - في هذه الآية : ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال : « يتبعونه حق اتباعه » . وقال ابن مسعود : « والذى نفسى بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، ويقراه كما أنزله الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً غير تأويله » . وقال ابن عباس : « يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ولا يحرفونه عن مواضعه » . انظر تفسير ابن كثير (١/١٦٨ ، ١٦٩) . (١٨٢) أخرجه أبو نعيم عن أنس بلفظ « الزبانية أسرع إلى ضعة القرآن منهم إلى عبدة الأوثان ، فتقول : يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان ؟ فيقال لهم : ليس من علم كمن لا يعلم » . وقال : غريب من حديث أبى طولة ، تفرد به عنه العمري . انظر (الحلية) (٢٨٦/٨) .

(١٨٣) هود : ١٨ .

أخرج ابن أبى حاتم - في معنى الحديث - عن ميمون بن مهران قوله : « إن الرجل ليصل ويلعن نفسه في قراءته فيقول : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ وإنه لظالم » . انظر (الدر المنثور) للسيوطى (٣/٣٢٥) .

(١٨٤) آل عمران : ٩٧ .

الله لم يذكره ، وإن كثرت صلاته وصومه وقراءته القرآن ، يا قوم فما علمتم بحدود القرآن وصلتم إلى أجزال الثواب وأعلى المنازل عند الله تعالى ، وإن ضيعتم حدود القرآن وتلوتموه للثواب خشيت أن يفوتكم الثواب بحدوده ، فكم تال له يتبرأ القرآن منه غدا ، ويهوى مع الهاوى بعد تلاوته القرآن ، أعاذنا الله وإياكم من هذا . فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يتلو كتاب الله لفضل ثوابه وعساه مضيعاً لكثير من حدوده فهو كمن لم يتل شيئاً . والآخر يعمل بحدود القرآن وإن كان أعجيباً فهو تال لكتاب الله أجمع ، جعلنا الله وإياكم من العاملين بحدوده . آمين يارب العالمين .

الباب الثالثون

التطهر من كل حرام قبل الإقدام عليه

إخواني : وإذا بدل الناس أموالهم في سبيل الله والخير بعد نفاذ في العلم ، ألا فاعقلوا كيف تبدلون من أموالكم من المال حلال طيب بين ومنه حرام بين ، وبينهما شبهات الله أعلم بحالنا فيها ، فأما الحرام فبادروا بالتخلص من تبعات العباد فيه ، وفرّوا إلى الله منه كله فرار منهزم من النار مطلوب . فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « من كسب مالا حراماً لم يقبل الله منه صدقة ، ولا عقاباً ولا حجاً ، ولا عمرة ، ولا غزواً ، وكسب عليه بقدره أوزاراً ، وما بقى منه عند موته كان زاده إلى النار » (١٨٥) . أعاذنا الله وإياكم من ذلك . أيها الناس ؛ فخلصوا من خبث أموالكم قبل حلول المنية بكم فإن المصير على الحرام متعرض للتلف والبوار وما يشعر ، وقد يحسب الجاهلون إذا بذلوا من الحرام في سبيل الله أنهم يحسنون في بذلهم ، ونسوا حرامهم ثم التعدى لأمر الله ، فيا ويحهم ! أما انتهى إليهم أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن صاحب المال استشهد في سبيل الله سبعين مرة لم تكن الشهادة له بتوبة ، والتوبة من الحرام الرد » . يا قوم فلا تجهلوا جهلهم واسألوا العفو من جرمكم فيما اجترمتم على الله في تناولكم الحرام ، فكونوا على وجل من عواقبه ، واحمدوا الله إذا أهدى الله منه الفرار ، وأنقذكم قبل الورود عليه ، ولولاه لكان ذلك وبالاً وبيلاً . فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما : يلتبس على بذله الحرام ثواباً ، وعساه مستوجب هناك عقاباً .

(١٨٥) أخرجه أحمد عن ابن مسعود مرفوعاً ، بلفظ : « لا يكسب عبد مالا من حرام ليفيق منه فيأرك له فيه ، ولا يصدق به فيقبل منه ، ولا يعرك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار .. » انظر (مسند أحمد)

(٣٨٧/١) .

والآخر يتطهر من جميع الحرام ، وقد أسقمه الإشفاق^(١٨٦) . ألا فبادروا بالتطهر من كل حرام قبل الورود على الله .

الباب الحادى والثلاثون ليس من الإحسان البذل من الشبهات !

إخوانى : وإذا بدل الناس من الشبهات فى سبيل الخير فرضاً على الله سبحانه وتعالى ، ألا فأريدوا بما تبدلون من الشبهات أن تتطهروا من التخليط فى مكاسبكم عسى بقية المال تطيب قليلاً . وبعد فكونوا وجلين من عواقبها قبل يوم الحساب . فإنه بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « يبعث الله عز وجل يوم القيامة قوماً من قبورهم أنتن من الجيفة ، وهم الذين يتلذذون فى الدنيا بفضول أمواهم من الشبهات » . بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « أعلم الخلق بالحلل والحرام إبليس ، فلذلك زين الحرام لأهله ، وأدخل على أهل الحلال الشبهات » . وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « من احتوى على الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام »^(١٨٧) . وقد يحسب قوم إذا بذلوا من الشبهات فى سبيل الله أنهم يحسنون فى بذلهم ، ونسوا الذى غمضوا^(١٨٨) كثيراً وقد خلطوا . ألا فلا تجهلوا واسألوا الله العفو من التقلب فى الشبهات ، وكونوا على وجل أن لا يقبل الله ما بذلتم للتخليط الذى كان فيه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : « إذا طاب المكسب زكى العمل ، وسُتِرْدُ فَتَعْلَمَ ذلك » . قال بعض أهل العلم : « لأن تدع درهماً واحداً مخافة ألا يكون جلالاً خيراً من أن تصدق بألف دينار من شبهة لا تدري أتحل لك أم لا ؟ » . وبعد فإن استقضى الله تعالى حسناتكم ليأتين عليكم ولتعلمن أن ترك الفضول كان أسلم لكم من بذلكم التخليط والشبهات^(١٨٩) ، وعن قريب يكون الورود ، فيا سرور المخفين يوم

(١٨٦) الخوف من الله ومراقبته والوجل .

(١٨٧) أخرجه مسلم فى (صحيحه) عن النعمان بن بشير بلفظ : « من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام » ، انظر تمام الحديث - كتاب المساقاة - باب أخذ الحلال وترك الشبهات . وابن ماجه فى (سنه) - كتاب الفتن - باب الوقوف عند الشبهات .

(١٨٨) غمض فلان : ارتكب الذنوب وهو يعرفها . وغمض على هذا الأمر : مضى وهو يعلم ماله وغمض عن الشيء تجاوز عنه وأغضى المراد أنهم مع علمهم بما فى أمواهم من شبهات يتناسون ذلك عند بذلهم . ويغمضون عيونهم .

(١٨٩) المراد أن تحرم الحلال فى المعصية أسلم عاقبة من بدل الأموال التى فيها شبهة .

الحساب ، وحزن طويل لأهل التكاثر ؛ فاشكروا الله على ما ألهم من البذل ، ووقى من البخل ، ولولاه لكانت المسألة أضعافاً ، وكانت المصيبة أعظم ، فله المنُّ بذلك . فهذا فضل ما بين الرجلين أحدهما مغموم بما ينال من الشبهات ويتخلل منها ويخاف ألا تقبل منه ، وأمنيته التخلص من الشبهات المزوجة بالسحت^(١٩٠) ، وعساه الذي يعث من قره أنتن من الجيفة وما يشعر ، أعاذنا الله وإياكم منها .

الباب الثانى والثلاثون

إرادة أداء الحقوق عند بذل المال مع الشكر لله

إخوانى . وإذا بذل الناس المال فى سبيل الخير من الحلال يزعمون بذلك مضاعفة الجزاء ، ألا فأريدوا بما تبدلون أداء الحقوق التى تجب لله وللعباد ، وابدلوا شكراً للنعم ووجلاً من البخل عن الله سبحانه وتعالى إشفاقاً من مناقشة الحساب ، وابدلوا لتتقنوا أنفسكم . فإنه بلغنا أن لله جل ثناؤه أوحى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام : **« إنما مثل الصدقة كرجل قتل رجلاً فأراد أهل القتل أن يقتلوه ، فقال : أنا ألقى نفسى فلم يزل يعطى شيئاً بعد شيء حتى أنقذ نفسه من القتل . يا قوم ، فبالله عليكم كذلك أنتم كل امرئ قاتل نفسه بالذنوب ، فابدلوا الحلال من المال فى فكاك رقابكم ، قبل أن لا يقبل منكم ، فقد أرى من بذل الحلال بزعمه واحتسب رجاءً لثواب حسناته أكثر من خوفه ألا يثاب عليه ، وعساه قليل الإشفاق من مساعلة الله عز وجل إياه فيما يتقلب فيه من الحلال بزعمه ، وهذا غرور وجهل عظيم ، فكونوا من أهل البصائر . يا إخوانى : فكما ترجون أن تقبل منكم حسناتكم ، كذلك كونوا وجلين أن لا يقبل منكم ذلك ؛ فإن الله جل ثناؤه قال : ﴿ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ ﴾^(١٩١) . قال بعض أهل العلم : **« أَيْ لِلدُّنْيَا حَلَالُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عَذَابٌ ﴾**^(١٩٢) . وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : **« مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُدِّبَ »**^(١٩٣) . وبعد فقد أتى الله عز وجل على الرجلين ﴿ والذين يؤتون ما آتوا**

(١٩٠) السُّحْتُ : ما غُت وبق من المكاسب .

(١٩١) المائدة : ٢٧ .

(١٩٢) أورده الغزالي فى الإحياء (١٧٢٢/٣) .

(١٩٣) أخرجه أحمد عن عائشة ، انظر المسند (١٢٧/٦) .

وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴿١٩٤﴾ قال: يظومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يقبل منهم . يقوم فتشبهوا بأولى الثقى في الوجل على أعمالكم ، فقد كان الرجل من خيار الصحابة - رضى الله عنهم - أمنيته أن تقبل منه حسنة واحدة إشفافاً ألا يقبل منه يقول : ﴿ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٩٥) . إخوانى واشكروا الله على ماألمهم من البذل ووقى من البخل ، واسألوا العفو مما اكتسبتم من الحلال بزعمكم ، فيا سعادة الخففين إذا سبقوا ، وبالعنوم الثقيلين إذا وقفوا . فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما ملتصق الثواب على بذله من الحلال بزعمه ناسٍ لمساءلة الله إياه ، وإن استقضى الإله سبحانه من حسابه لياتين عليه . والآخر يبذل مثل ذلك وقد أضناه الوجل من مناقشة الحساب ؛ فأمنيته الخلاص من الحقوق التى وجبت عليه في الحلال ، ولا يطمع في الفكك إلا بتجاوز الله وعفوه ؛ لأن الله أوجب الحقوق في المال الحلال ، فأما الحرام فماله إلا الفرار إلى الرحمن عز وجل ، والتخلى إلى أهله من كله . إخوانى : فتدبروا ما سمعتم ، واعلموا أن أعمال العباد عند الإله سبحانه طبقات ، ولذلك أقدارهم ومنازلهم عنده يعلو بعضها على بعض ؛ بما عقلوا عن الله ، وعلموا كيف يعملون له وإن كثيراً من الناس ليعملون بالرغبة في الثواب ، ولولا الثواب لتناقلوا عن كثير من البر . يقوم فاستكثروا من النوافل ، لإكمال الفرائض . فإنه بلغنا أن الله عز وجل ثناؤه يقول : « لست بناظر في حق عبدي ، حتى ينظر العبد في حقي » (١٩٦) . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « إنه لن يصل إلى قلب العبد روح الله ، والله قبله حق لم يؤده » ألا فقدموا النية في أداء حقوق الله في الأمور كلها ، ولا تشغلوا قلوبكم بمالكم عنده ، وتأسوا بالذين نعمت رسول الله ﷺ بقوله : « ألا وإن العالمين هم العلماء بالله ، الفقهاء هم صفوة الله من خلقه » (١٩٧) . فاعقلوا تأديب الرسول ﷺ ، فمتى أكملت الفرائض بالنوافل ، وأذهبت السيئات بالحسنات ، ثم كان لكم بعد ذلك أعمال تزيد على حقوق الله عز وجل ، فإن ذلك مدخر عند ربكم ، والوفاء بما لديه وإن كان لكم في حقوق الله تقصير . فَيَا لَعْمُومَ المفرط يوم الحساب ! يسر الله علينا وعليكم الحساب آمين يارب العالمين .

(١٩٤) المؤمنون : (٦٠) .

(١٩٥) المائدة : ٢٧ .

(١٩٦) أورده صاحب كنز العمال - حديث (٤٣١٧٢) ، وعزاه للطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وخطفه . (١٩٧) أورده الغزالي في الإحياء بنحوه (٩٨/١) ، وقال الحافظ العراقي : أخرجه ابن حبان ، في كتاب روضة العقلاء ، والبيهقي في المدخل موقوفاً على أبي الدرداء ، ولم أجده مرفوعاً . وفي نسخة من المخطوطة . الفقهاء عن الله ، الذين عقلوا عن الله ، وأدوا إليه ماله قبلهم ، ولم تتع أنفسهم ما لهم عنده أولئك صفوة الخلق من خلقه .

الباب الثالث والثلاثون الانتفاع بالعلم وشكر النعم

إخواني : إذا شكر الناس ربهم بالألسن ، وضيعوا حدود النعم ، وفرطوا في آداب الشكر ، فذلك مذموم ، فراقبوا الله واستعملوا كل نعمة من النعم في الشكر على حالها ، فإن الشكر واجب على العبد في كل نعمة . واشكروا الله على ما أنعم عليكم من الألسن بكثرة التلاوة والذكر ؛ فإن فرطتم في ذلك فاستحيوا أن تخوضوا بالألسن في فنون الآثام كفعل من أرى ! . فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « وهل نقول إلا مالك أو عليك ، وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » (١٩٨) .

ألا واشكروا الله على ما أنعم عليكم من الأبصار بالنظر إلى الحق بالاعتبار شكراً له ، فإن رغبت عن ذلك فراقبوا الله أن تنظروا بالأبصار إلى الحرام ، فنعصوا الله بنعمته كفعل من أرى ! فإنه بلغنا أن من لم يَعْضَ بصره عن النظر إلى الحرام كُحِلَّت عيناه بِمُئْمُولٍ (١٩٩) في نار جهنم . ألا فراقبوا الله واشكروه على ما أنعم به عليكم من الاستماع إلى القرآن والذكر والمواعظ الحسنة ، فإن ضيعتم ذلك فاستحيوا من الله أن تنصتوا بأسماعكم إلى الهوى والأخايش (٢٠٠) كفعل من أرى . واشكروه على ما أنعم عليكم من الأيدي يسطها إلى الخيرات ، فإن قصرتم في ذلك فاستحيوا أن تبسطوها إلى الظلم والأذى كفعل من أرى ! . فإنه بلغنا أن الظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة ، وتبعات مهلكات (٢٠١) . وبلغنا أن داود عليه السلام رأى محلاً بين السماء والأرض فقال : ما هذا يارب ؟ قال : هذه لعنتي أدخلها بيت كل ظالم . ألا فاتقوا ذلك

(١٩٨) أخرجه الترمذى عن معاذ بن جبل - بلفظ «كفلك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» وقال : هذا حديث حسن صحيح . انظر تمام الحديث (صحيح الترمذى) كتاب الإيمان - باب ما جاء في حرمة الصلاة . وأخرجه ابن ماجه في سننه - كتاب الفتن - حديث (٣٩٧٣) وأخرجه أحمد في مسنده (٢٣١/٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧) .

(١٩٩) الْمُئْمُولُ : المِكْحَال . أى المرود أو الميل الذى يتكحل به .
(٢٠٠) الأخاييش والأخايش خصمه بخصه خطئه ، فهم يظلمون الحق بالباطل والأخايش يراد بها - أجناس الحوض في الباطل ومن قوله تعالى ﴿ وكنا نجحس مع الحافظين ﴾ وقوله : ﴿ وحضم كالذى خاضوا ﴾ أى كخوضهم . وهو المناسب هنا .

(٢٠١) أخرجه البخارى في صحيحه ، عن عبد الله بن عمر ، انظر صحيح البخارى : كتاب المظالم ، باب الظلم ظلمات يوم القيامة حديث رقم (٢٤٤٧) ، والترمذى في صحيحه ، وقال : حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر ، انظر صحيح الترمذى (١٨٤/٨ ، ١٨٥) .

واشكروه على ما أنعم من الأقدام ، بالسعى إلى الطاعات ، فإن قصرتم في ذلك فراقبوا الله أن تسعوا على الأقدام في الآثام كفعل من أرى ؛ فإن الله جل ثناؤه يقول : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ (٢٠٢) . فكيف بك والأكبال (٢٠٣) في الأقدام ، والأغلال في الأعناق ، ألا فاتقوا ذلك ، واشكروه على ما أنعم به من الأقوات فراقبوا ألا تقوؤا بها على مكاره الرزاق عز وجل . فإنه بلغنا أن الله عز وجل يقول : « عبدى بفضل نعمتى قويت على معصيتى » ، فحق على الله أن يعذبه بالنار . ألا يا قوم ، فلا تعصوا الله بنعمته ، واشكروه على ما أنعم به عليكم من اللباس أن تبلوه في رضى المنعم ، فإن قصرتم في ذلك فاستحيوا أن تبلوا لباسكم في مكاره من ألبسكم فلا تأمنوا أن يلبسكم في القيامة سراويل من قطران وثياباً من مَقَطَّعَاتِ النيران . ألا فاتقوا ذلك ، واشكروه على ما أنعم به عليكم من الأهوال أن تبلوها في سبيل الوَهَابِ فإن بخلتم بها عنه فاستحيوا من الله أن تُنفقوا مواهبه في مكارهه فتعصوا الله بنعمته كفعل من أرى . فإنه بلغنا « أن العبد إذا رزقه الله مالاً من حلال فأنفقه في حرام ، يقول الله عز وجل : اذهبوا به إلى النار ؛ فيمكث فيها ماشاء الله » (٢٠٤) . فاشكروه على ما أنعم به عليكم من الإيمان بالله بأن تبذلوا الجهود في رضاه وتبالغوا في مسراته شكراً لتعظيم ما أنعم به عليكم فإن عجزتم عن المبالغة في رضوانه فراقبوا الله أن تضيعوا حدود الإيمان فلا تأمنوا سلب الإيمان مع الاستهانة بحدوده واشكروه على ما أنعم به عليكم من العلم فتحروا مسرات الله عز وجل واعملوا بفضائل ما ندبكم إليه من محابته ؛ فإن عجزتم عن ذلك فراقبوا الله تعالى أن تعدوا ما افترض عليكم . وبلغنا : « أن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » (٢٠٥) . واشكروه على ما أنعم به عليكم من العقل بالتفكير والتدبر واعتقاد حسن النية والاعتبار ، وشدة الإشفاق ، وطول الحزن في جميع الجوارح ، وسلامة الصدر للعامة ، والإضمار على مسرات الله ، فإن قصرتم في ذلك فراقبوا الله واتقوا خبث السرائر وإضمار السوء واعتقاد الغل والحسد والعداوة وأشباهها من المكروهات . واشكروه على ما أنعم به عليكم من العقل بأن تعظموا الله عز وجل وتجلوه وتكرومه .

(٢٠٢) التور : ٢٤ .

(٢٠٣) الأكبال : القيود .

(٢٠٤) أورده الغزالي في الإحياء ، وقال الحافظ العراقي : لم أقف له على أصل ، انظر الإحياء (٤/١٨٢٤) .

(٢٠٥) أخرج الدارمي عن أبي الدرداء - موقوفاً - قوله : « إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة عالم لا يظن بعلمه » ، انظر سنن الدارمي (١/٨٢) .

وتستحيوا منه وتهابوه وتقفوه وتطيعوه على حسب ما عقلتم من عظمته وكبريائه وعظيم قدره سبحانه وتعالى ، فإن عجزتم عن ذلك فراقبوا الله تعالى أن تكونوا كالذين لا يعظمونه ولا يجلونه ولا يهابونه ولا يستحيون منه ولا يتقونه ولا يطيعونه بل يستهينون بكثير من أمره ؛ فاتقوا الله يا قوم أن تعودوا بعد المعرفة والفهم جهلاً ، ويعود العقل والعلم عليكم وبالأ ، وهذا ونحوه من فضل العلم والعقل وفضل النية والإرادة ، فهذا فرق ما بين العباد ، وقد يستوى الرجلان في الطاعات والورع وأحدهما أرجح عقلاً وأشد تحريماً لمسرات الله عز وجل وأبلغ في رضوانه . وهب الله لنا ولكم القيام بحدود النعم والشكر عليها .. إنه جواد كريم .. آمين يارب العالمين .

الباب الرابع والثلاثون سلوك العلماء

إخواني : وإذا رأيتم الناس يبدون ما عندهم من العلم ، وفي ذلك يزدرى^(٢٠٦) بعضهم على بعض وقلوبهم متنافرة ، والنفوس متباينة فأسروا أموركم بمجهودكم ، وكونوا للشهرة والجدال مبغضين ، ولخمول الذكر محبين وبالوحدة والانفراد آنسين ، وبين المأ مستوحشين ، وفي الخلوة والصمت راغبين ؛ فليس من أحد بخطيئة إلا والله يسأله عنها ما أراد بها . إخواني : فلا تعرضوا لمساءلة الله وإياكم فيما لا فقر لكم إليه . وبعد فإني أوصيكم متى أظهرتم من العلم شيئاً فأريدوا به وجه الله وتذكروا منه بقدر الحاجة إلى بيانه للمريدين خشية الخروج من كتمان ، فقد كانت المساءلة تقع على عهد السلف - رضى الله عنهم - فيود كل امرئ منهم أن أخاه كفاه الجواب ، وكان الرجل منهم يعلم العلم الكثير ويفقه الفقه الكثير وما يعلم به جاره . وقال بعض الصحابة : رأيت ثلاثمائة بدوى ما منهم الرجل إلا وهو يشتهي الكفاية في المفتى^(٢٠٧) . وبعد فإن أظهر أحدكم أمره ، وأبدى علمه فنسب إلى الجهل والخطأ لم يؤمن عليه الأنفة^(٢٠٨) والامتعاض^(٢٠٩) والحق ، فإن استحسنوا قوله لم يؤمن عليه الفتنة والتزين والإعجاب ، وإن قال بغير علم لم يؤمن

(٢٠٦) ازدرى : حقر وعاب .

(٢٠٧) أى يضمن أن يجده عندما يفتيهم به ، من جواب كإب شاف

(٢٠٨) الأنفة : الكبر .

(٢٠٩) الامتعاض : الغضب ويقال : امتعض : أى غضب وشق عليه .

عليه الجرح ، وإن تكلف القول لم يؤمن عليه الأنفة أن ينسب إلى الجهل ، فإله عز وجل لا يحب المتكلفين . وبعد فإني لك بالسلامة مع الصمت وخمول الذكر فكيف إذا نصبت نفسك عالماً يشار إليك وتطاع ، ويغدى ويراح إليك ، ويقبل قولك ويصدر عن رأيك ويرضى لرضاك ويغضب لغضبك ، وعساك تفرط في بغض المخالفين لك وتفرط في حبّ الموافقين لك وعلام الغيوب مطلع على جَولَانَ^(٢١٠) الضمير فيآلها فتنة ما أعظمها على العبد إلا من عصمه الله ! ، فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما يظهر ما عنده من العلم ويتعرض لأنواع الفتن فإما سلامة وإما عطب ! . والآخر يكتم شأنه فسلم بمنّ الله وعصمته . وبعد فإن قال قائل إن تركنا مدارس العلم ولم ننظر فيما يقع من المسائل أوشك أن يندرس^(٢١١) العلم ، فقولوا له : إن الأمة لم تضطر إلى أمثالنا ونحن بحمد الله في دهر كثير خطبأؤه وفيك بحمد الله وفيمن يُظهر ما عنده كفاية تبوحون بالعلم رغبة في الثواب ومنافسة في العلو والرفعة وعساكم تغارون كما تغار النساء ، ولو أن طلاب العلم محبسون في السجون لتخلصوا إلى الوصول إلى بغيتهم من إظهار العلم للعلو في الدنيا والرياسة فيها . وبعد فإن في التأسى بالسلف الصالح قُدوة ؛ فإنهم رغبوا في خمول الذكر وآثروا كتمان شأنهم فهم القادة فكيف بمن هو منقوص والعلم مسجون بالتزير والإعجاب . إخواني : فعليكم بالستر وإخمال الذكر فإن المظهرين للعلم كثير ؛ فمن راغب في الثواب ومن متعرض للعقاب^(٢١٢) .

الباب الخامس والثلاثون أعمال البر

إخواني : وإذا أظهر الناس أعمال البر ليُقتدى بهم ، فأيسرُوا أعمالكم بمجهودكم ، فإن الفتنة فيها عظيمة ، والجهاد فيها شديد . وبعد : فلسنا للاقتداء موضعاً ، ولسنا -

(٢١٠) جال : جَولاً وجَولَةً وجَولَاناً : المراد ثقل الضمير من حال إلى حال وما يجوز فيه من انفعالات .
(٢١١) يندرس : يذهب أثره ويتقدم عهده .

(٢١٢) يرى الخاسي هنا أن كتمان العلم واجب ؛ إلا أنه يقصد العلم الغيبي ؛ أي العلم الذي يبحث عن الساعة والروح ومثل هذه الأمور . أما العلوم التي تبحث عن أسرار الكون ، أو التي تحض على مكارم الأخلاق فلقد أمرنا الدين الحنيف بأن نتعلم وأن نُعلم ، وجاء في الصحاح أن من أشرط الساعة قبض العلم وانتشار الجهل ؛ ولا علم إلا بالتعلم . ومصداق هذا من كتاب الله ، قوله عز وجل ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ . ويؤيد هذا التأويل لكلام الخاسي كونه منصوفاً ؛ فالمتصوفة ينصب جل اهتمامهم على العلم الغيبي ، ويجتهدون أيما اجتهاد في كتمانه .

والله - لذلك أهلاً وإنما ذلك للخلفاء المهديين وأئمة المسلمين ، أظهروا قليلاً من كثير أعمالهم لتأديب الأمة وإرشادها ؛ فلا تشهروا أنفسكم ، فإن للشيطان فى إظهار العلم والقول مكائد يستدرج بها كثيراً ، يزين لهم إظهار العلم والعمل ليقضى بهم ، فأبدى القوم ما عندهم من العلم وأعمال البر طمعاً فى ثواب المتأسين بهم ، وجعلوا الذى حلّ بهم من مكائد الشيطان قبلوا بصنوف الآفات وما يشعرون . يا قوم : وكيف للناقل علمه المتفقد لنفسه ، المتخوف من عدوه ، الورع فى أحواله أن يسلم من مكائد الشيطان إذا أسرّ أعماله وأخفاها ، فكيف بالمفتون إذا أعلن أعماله وأبداها ؟ ألا فلا تتعرضوا للفتنة والبلوى ، فإن لم يضطر إليكم ولا للتأسى بكم فأسرّوا أموركم بمجهودكم . فإنه بلغنا أن الله يُظللّ بعرشه - يوم لا ظلّ إلا ظلّه - رجلاً تصدق يمينه فكاد أن يخفيها عن شماله^(٢١٣) . وقال بعض أهل العلم : « أدركنا أقواماً وما على الأرض من عمل يقدرّون أن يعملوه فى سر يكون علانية أبداً » . بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « لما خلق الله الأرض ، فمادت بأهلها ؛ فخلق الجبال فصيرها أوتاداً للأرض قالت الملائكة : ما خلق الله خلقاً - هو - أشدّ من الجبال ؛ فخلق الله الحديد فقطع الجبال ، ثم خلق النار فأذابت الحديد ، فأمر الله الماء ، فأطفأ النار ، وأمر الريح فكدرت الماء ، فاخطفت الملائكة فقالت : نسل الرب - عز وجل - فقالت : يارب ما أشد ما خلقت من خلقك ؟ قال : لم أخلق خلقاً أشد من ابن آدم حين يتصدق يمينه فيخفيها عن شماله ؛ فهذا أشد خلق خلقته^(٢١٤) . وبعد فإنه بلغنا أن أعمال السر تزيد على أعمال العلانية بسبعين ضعفاً^(٢١٥) . فهذا فضل ما بين

(٢١٣) أخرجه البخارى عن أبى هريرة - انظر (صحيح البخارى) كتاب الزكاة - باب الصدقة باليمين ، وأخرجه مسلم كتاب الزكاة - باب فضل إخفاء الصدقة ، وأحد فى مسنده (٤٣٩/٢) ، وانظر (الفردوس) للدليمى - حديث (٣٤٩٦٠) وأورده الغزالي فى الإحياء (١٨٦٧/٤) .
(٢١٤) أخرجه أحمد - فى مسنده - عن أنس بن مالك (١٢٤/٣) ، والترمذى - كتاب التفسير (٢٦٣/١٢) ، (٢٦٤) بلفظ : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال ، فماد بها عليها فاستمرت ؛ فصعبت الملائكة من شدة الجبال ، قالوا : يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال : نعم ، الحديد ، قالوا : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم .. النار ، فقالوا : يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم .. الماء ، قالوا : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال : نعم .. الريح ، قالوا : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم .. ابن آدم تصدق بصدقة يمينه يخفيها عن شماله . وقال : هذا حديث غريب لم أجده مرفوعاً إلا من هذا الوجه وأورده الغزالي فى الإحياء (١٨٦٨/٤) .
(٢١٥) حديث تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين : ضعفه البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء ، ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف ، انظر الإحياء للغزالي (١٨٦٨/٤) .

الرجلين . أحدهما : يظهر ما عنده طمعاً في الثواب وقد دهله الشيطان وعرضه للعقاب . والآخر : أشد احتقاراً لنفسه ، وأوضع لها من أن يراها موضعاً للاقتداء بها .. فالحدّزَ الحدّزَ ! .

الباب السادس والثلاثون

الفرح بالمدح والويل للمادح والممدوح !

إخواني : وإذا رضى الناس بالمدحة فارتاحت لها أنفسهم ، ألا فراقبوا الله أن ترضوا بذلك ، وكونوا وجيلين من ضرر المدحة فإن لها حلاوةً تسبق إلى القلوب ، ومواقع في النفوس موجودة ، ولهذا لا يسلم منها إلا القليل ، وذلك لأن منكم من يعمل بأعمال البر لا يريد بها سيواه ، فإذا بدت فضائله أثنى عليه وأكرم وعظم وأذاقه الشيطان حلاوةً بالها حلاوة توافق هوى النفس فتتراح لها نفسك . أيها العابد للثناء والمدحة ، والتعظيم ، والتبجيل وتعطى عليه وترضى به وهذا من خبايا النفوس وأنت في غفلة ، وسأضرب لكم مثلاً للمتراضى بالمدحة فإنما مثله كمثل رجل بهزأ فيقال له : إن للعذرة^(٢١٦) التي تخرج من جوفك لها رائحة كريح المسك ، فالمغرور يعلم أنه بخلاف الذي قيل له ، والله - عز وجل - عالم بما في جوفه من التن والقذر ، ولكن بهجهله قد يرضى بما يسخر منه ويستهزئ به مع علمه أنه بخلاف ذلك الذي قيل له بما في جوفه من التن^(٢١٧) والقذر ، ومع ذلك فهو يفرح بالمدحة وكذلك المتلوث في الذنوب أقدر - والله - وأتئن من العذرة وأولى بالمذمة في الآخرة والدنيا ، وقد رضى بالمدحة جهلاً ، وعساه مستوجب للمقت من ربه ، فمن أحسر منه لو يعلمون ! . يا قوم : فمتى بليتيم بالمدحة فجاهلوا أنفسكم على نفي ذلك عن القلوب بالكراهة والوجل من المدحة ، وقد أشفق عليكم رسول الله ﷺ منها ونهاكم عن التمدح لعلمه أنها مضرة ، فاتقوا الله أن ترضوا بالمدحة لكم ولا يفرنكم الشيطان وأوليائه من الإنس فإنهم يزعمون أنهم إذا أرادوا بأعمال البر وجه الله لم يضرهم الفرح والرضى بالمدحة فهذا من قياس إبليس وآرائه فتنة لأوليائه . ويح المادح والممدوح كيف جهلوا رشدهم فكروها مذمة لا تضر بل يُؤجرون عليها ورضوا

(٢١٦) الطيرة : العلط .

(٢١٧) أي بسبب ما في جوفه من التن والقذر .

بالتماذج بينهم بخلاف وصايا رسول الله ﷺ ؟ لقد جهل القوم جهلاً بيناً . زعمت أيها المفتون أنك إذا أردت الله تعالى بأعمال البر لم يضرك الفرح والرضى بالمدح ، فإننا ندع ذكر عبادتك ، فالله أعلم بحالك فيها ونرجع إلى النظر فيما ابتدعت من القول . ويحك أيها المفتون أما علمت أن بعض أهل العلم قال : « من فرح بمدح فقد أمكن الشيطان من الدخول في بطنه »^(٢١٨) . فهذا العالم قد ذمك بفرحك بالمدحة ولم يذكر عبادتك التي زعمت أنك عليها ولو عملت لغير الله لكنت من رعوس المرائين فما ذكرك للعبادة ؟ وإنما استوجبت المقت بفرحك ورضاك بالمدحة .. علمت البر ولم تعمل به . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : « إذا قيل لك : نعم الرجل أنت ، فأنت والله ينس الرجل إذا كانت المدحة أحب إليك من المذمة »^(٢١٩) . فانظر أيها المغرور هل تجد نفسك للمدحة والتعظيم وترضى به وهل تأنس بالمدح وإن كان مفرطاً في مدحك وهل تكره المذمة وإن كانت حقاً ؟ وهل تغضب على الذم وإن كان صادقاً ؟ فإن كنت كذلك فأنت ينس الرجلين . وإن أكثرت من العبادة ، فإن نفسك من أنفس المحبين للمدحة والتعظيم بل أنت أعظم جُرمًا ممن يحب المدحة ويُقرُّ بالإساءة ويعترف بذنبه فهو أرجى للأمانة والعمو منك إذ تزعم أن رضاك وسرورك بالمدحة لا يضرك ! أيها المغرور : وقد بلغني حديث لم أثقن إسناده - إن صح ذلك فإن فيه يبرأرك - بلغنا « أن رجلاً أتى على رجل خيراً عند رسول الله ﷺ ؛ فقال رسول الله ﷺ : لو كان صاحبك حاضراً ، فرضى بالذي قلت ، فمات على ذلك دخل النار »^(٢٢٠) . أيها المفتون وهذا جزاء من اختتم أعماله بالرضى بالتركيبية ويحك أيها العابد قد كان في الصحابة كثير ، أرادوا الله بأعمال البر كإرادتك بزعمك ، وحاشا لله أن تكون مثلهم أو يكونون مثلك لقد كانوا للثناء والإجلال أهلاً ، وهم مع فضلهم وتقواهم أشفق عليهم رسول الله ﷺ من ضرر المدحة ونهاهم عنها ، وقال للمداح : « ويحك قطعك ظهره ، لو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة »^(٢٢١) . وقال لهم : « ألا

(٢١٨) أورده الغزالي في الإحياء (٤/١٨٥٩) .

(٢١٩) انظر المصدر السابق (٤/١٨٥٩) .

(٢٢٠) أورده الغزالي في الإحياء ، وقال الحافظ العراقي : لم أجد له أصلاً ، انظر الإحياء (٤/١٨٥٩) .

(٢٢١) أخرجه البخاري عن أبي موسى - كتاب الشهادات - باب ما يكره من الإطباب في المدح وليل ما

يعلم . ومسلم عن أبي موسى أيضاً - كتاب الزهد والرفاق - باب النهي عن المدح . كلامها بلفظ : « سمع

النبي ﷺ رجلاً ينس على رجل ويظهره في المدحة ، فقال : لقد أهلكم - أو قطعهم - ظهر الرجل ، وأورده

الغزالي في الإحياء (٤/١٨٦٠) .

لا تلمدحوا ، وإذا رأيتم المادحين فاحثوا في وجوههم التراب» (٢٢٢) يقولها ﷺ إشفافاً على المدوح وأن يفرح بالمدحة ويرضى بها ، فيضرب يديه عساه لا يفلح منها أبداً ؛ فحذرهم رسول الله ﷺ فتنة المدحة قبل أن تحل بهم وأنت تزعم أنك إذا مدحت فرحت ورضيت بالمدحة لأن ذلك لا يضرك ؛ ويحك !! ما أجهلك بالذي علم رسول الله ﷺ من ضرر المدحة ! وبعد : فتدبروا أحوال الصحابة - رضى الله عنهم - فقد كانوا أعلم بالله تعالى وأخشى له منك ، وأخلص أعمالاً ، وكانوا مع ذلك وجلين من المدحة يكرهونها ويغضبون على المادح إشفافاً من الفتنة فيها وأنت تزعم أن رضاك بالمدحة لا يضرك ، كأنك أرجح صدقاً وإخلاصاً من السلف، كأنك أقوى على نفي الفتنة منهم ؛ كذبت أيها المفتون ! وقد بلغنا عن عدد من الصحابة - رضى الله عنهم - أنهم كانوا يكرهون المدحة ويغضبون على المادح ، أما أحد الخلفاء فقد سأل رجلاً عن شيء فقال له الرجل : أنت يا أمير المؤمنين خير منى وأعلم ؛ فغضب عليه وقال : إني لم آمرك أن تزكيتي (٢٢٣) . وقيل لبعض الصحابة : لن يزال الناس بخير ما أبقاك الله ! فوجد (٢٢٤) من قول المادح ، وقال : إني لأحسبك عرافاً (٢٢٥) ، وما يدريك ما يغلق عليه بابه (٢٢٦) من أهله . وبلغنا أن رجلاً مدح بعض السلف فغضب المدوح ، وقال : « اللهم إن عبدك هذا تقرب إلي بمقتك فأشهدك على مقته » (٢٢٧) . فهؤلاء الأخيار كرهوا المدحة ، وغضبوا على المادحين وجلاً من ضررها ، وأنت تزعم أن فرحك بالمدحة لا يضرك أف لك ما أبعد شبيهك بالقوم ! ويحك إن الصحابة بغضوا المدحة ، وإنك لترتاح إليها ! وغضبوا على المادح الصادق في مدحتهم ، وإنك لتود المادح الكاذب المفرط في مدحتك ! ورضوا بالمدمة وهم أظهر الناس منها ، وإنك لتغضب ، وتأنف

(٢٢٢) أخرجه مسلم عن المقداد مرفوعاً - كتاب الزهد والرقائق - باب النبي عن المدح بلفظ : إذا رأيتم المادحين ، فاحثوا في وجوههم التراب . . وأخرجه ابن ماجه - في سننه - عن المقداد بن عمرو أيضاً - انظر كتاب الأدب - باب المدح .

• والمراد بقوله : « فاحثوا في وجوههم التراب » أى ردهم خائبين دون أن تعطوهم شيئاً مقابل مدحهم ، وهذا ما ذهب إليه معظم العلماء .

(٢٢٣) أورده الغزالي في الإحياء (٤/١٨٦٠) .

(٢٢٤) وجد : أى غضب .

(٢٢٥) عرافاً كاهناً تكهن بما يحدث مستقبلاً . وفي المخطوطة عرافياً .

(٢٢٦) أورده الغزالي في الإحياء (٤/١٨٦٠) . والمراد : لست تدري ، ولا أحد يدري .. أيفلق بابه على غير أم شر ؟

(٢٢٧) انظر المصدر السابق (٤/١٨٦٠) .

من المذمة ، وأنت أولى الناس بها ! ورحموا الذام ، وعَفَوْا عنه وإنك لتحقد عليه ! وهذا من خبايا النفوس للعابدين وأنت في غفلة ودُهَيْت وما تشعر ! أيها المغرور : أترى نفسك طمعت فعملت على الإخلاص لتستوجب الثواب من الله عز و جل ، ثم تأخذ بعد ذلك نصيباً من الفرح بالمدحة والقدر والتعظيم في الدنيا لتنال ثواب العاجل والآجل .
بئس ما مُتَّكَ نفسك . أفئنا برأيك أيها المفتون : أيُّ الأمرين أصلح لديتنا : أن نخاف ونحذر ما حذَرنا رسولُ الله ﷺ من ضرر المدحة ، ونجاهد أنفسنا على نفى السرور من القلوب إذا بُلينا به ، ونستغفر الله تعالى منه ؛ أو نتكل على قولك : إن الفرح والرضى بالمدحة لا يضر ، فتزكى أنفسنا إلى قول المغرور^(٢٢٨) ، ونرضى المدحة ، ونرتاح لها لرضاك بالمدحة وارتياحك لها ، ثم تحسب أنك مع ذلك من المخلصين ، وعساک بشرُّ المنازل عند الله تعالى غيرَ زَكِيٍّ ولأ حميد . أف لك أيها المغرور الفاش لنفسه ، وللأمة تذكُّر ما أقول لك فإنني ناصح لك : أن تكره المدحة ، وتخشى الفتنة فيها ، فقد خوَّفك رسولُ الله ﷺ منها ، ومتى وجدت حلاوة المدحة ، والسرور بها ؛ فجاهد نفسك على نفى ذلك عن قليل ، واستغفر الله تعالى من فرحك بالمدحة ككاتب من الذنوب ، وكن بعد المجاهدة والتوبة خائفاً أن لا تكون نصحت في التوبة ، ولم تجاهد نفسك في الله حق جهاده ، لأنك لم تصل إلى بغض المدحة ، ولا إلى الغضب على المادح كفعل الصحابة رضی الله عنهم ، فكن عارفاً بإساءتك إذا فرحت بالمدحة ، وكن وجلاً من العقوبة إذا رضيت بها ، وكن مشفقاً لعلك أن تكون عند الله تعالى من المحبين لها ، فإن علكك بها أنفع من العبادة مع الجهل بما وصفنا . وبعد أيها العابد : فما أنت والفرح بالدنيا وهي سجن المؤمن^(٢٢٩) ، لا يفرح بها ، ولا ينعم فيها ، ولا يطمئن إليها ، وإنما الدنيا دار بلوى وفتن ، ودار هموم وغموم وحزن ، وقد قال آدم عليه السلام : « كنا نسأل الله من السماء نسلأ ، فسبانا إبليس بالخطيئة ، فليس ينبغي لنا أن نفرح ، ولا ينبغي لنا إلا البكاء والحزن ، ما كنا في دار السبي ، حتى نُردَّ إلى الدار التي سُبينا منها » . إخواني : وقبيح بالعاقل أن يفرح بشيء من أسباب الدنيا ، فكيف يمدح الباطل والمغرور؟! وبعد : فافهم ما أقول لك أيها العابد المسرور بالمدحة ، فإنك لو أتيت من العبادة ما أيسَّت بك الطير والسباع والدواب ، وهوام الأرض ،

(٢٢٨) استأداً إلى قول المغرور .

(٢٢٩) حديث « الدنيا سجن المؤمن ، أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الزهد حديث رقم (١) ، وابن ماجه في سننه كتاب الزهد باب (٣) ، وأحمد في المسند (١٩٧/٢) ، ٣٢٣ ، ٣٨٩ ، ٤٨٥ .

جمعا ، وأنت عليك به الملائكة ، وفرح بجوارك الإنس والجن أجمعهم ، وحمدوا أمرك
 في كل أحوالك ، ومدحوك بأعمالك ، وعرفوك بها ومدحت برّ نفسك ، فهل ترى
 لك أو لغيرك أن يتكل على ذلك ، أو يغتر بمدحة المخلوقين دون الورد على الله تعالى ،
 فيتبين لك بماذا ختم لك أمرك ، و تعلم رضى الله عنك من سخطه عليك ، فيما نعيم
 مقيم وإما عذاب أليم ! أخى : راقب الله - عز وجل - ولا تغتر بالمدحة فكم من معذل
 في الناس ليس يعدل عند الله تعالى ولا مرضى ، وكم من مُجْتَهِدٍ في العبادة صار للنيران
 حَطْبًا وصارت عبادته هَبَاءً مَشْتُورًا - أولهم إبليس وكم من عبد يصبح مؤمناً ويُسمى
 كافرًا ويُسلب إيمانه وما يشعر ! فالعاقل الشفيق من سلب الإيمان لا يأمن ولا يفرح
 بمدح الباطل والغرور ! فلو أتاك الوحي بأنك ممدوح عند ذى العرش ، بالغ في الخفاقة
 والتقى ، فتدبر أمرك ، وقل الحق : بماذا صرت ممدوحاً في السماء ، ولست لذلك
 أهلاً؟! فإن جعلت أنك نلت ذلك بذات نفسك ، واستوجبت بفعلك لقد ادعت
 عظيماً ، وجهت أيادى النعم لله - عز وجل - عليك ولولاه لم تكن ممدوحاً مهدياً .
 يا أخى : فالمنة لله عليك أعظم ! وبذل المجهود لك في الشكر أزم ، والوجل والإشفاق
 من زوال هذه النعمة عليك - أكد وأوجب ، ويحك ! إن عملت في الشكر ، وأشفت
 من سلب النعمة ، فلك في ذلك شغل شاغل عن الفرح بمدح الباطل ؛ فقد أشفت
 الملائكة والأنبياء عليهم السلام فقالوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (٢٣٠) .
 فكيف وأنت مقصر في كثير مما يجب عليك ، وأنت والله مسئول في القيامة مطلوب ،
 فالحزن أولى بك من الفرح ولاسيما بمدح الباطل والغرور ! أخى : تدبر ما أقول لك :
 من المستوجب عندك للثناء والمدحة إلا من زينك بالأفاعيل الجميلة ، وحبيك بالخصال
 الممدوحة؟! ومن تفضل عليك بالأيدى الجسيمة ، والمِنَن العظيمة ، والنعم المتواترة
 والآلاء المحمودة المتظاهرة؟! فالنعم بذلك أولى بالمدحة والثناء والشكر ، أم أنت
 مستوجبها في خاصة نفسك؟! ويحك ! قل الحق : مستوجب للثناء والمدحة والشكر
 إلا متفضل عليك أن شهدت له بالوحدانية وشغلك بالطاعة ، وحفظك من المعاصى ،
 وصرف عنك سرور نفسك ومكائد عدوك ، وأعاذك من أهوائك المرديّة ، وستر
 عليك القبيح وأظهر لك الجميل وجعلك بستره عليك مُكْرَمًا في الناس محموداً . أخى :
 فالنعم بذلك أولى بالمدحة والشكر ، أم أنت مستوجب في خاصة نفسك التي تأمر

بالأسواء^(٢٣١)، وتُثَبِّطُ عن الخير، وتشجع على المعاصي وتطفئ في الغنى، وتكفر وتبطر عند الرخاء، وتقنط عند الضراء، وتنسى حسن الآلاء وتقصر في شكر النعماء، فمن أولى بالمدحة؟ وكيف يستوجب المدحة من هذا نعته؟ أخى: فراقب الله - عز وجل - وبالغ في الشكر، وكن وِجلاً من زوال النعم، وسلب الإيمان، ولا تحسب أنك للمدحة أهلاً، فيهلكك الله، ويكللك إلى نفسك، ويزيل عنك النعم، ويهتك عنك الستور، ويبدى الذى يعلم من قبائحك للعالمين، ويحك لقد عظمت مصيبتك إذا استبدلت بمدحة الملك الأعلى ورضيت بتزكية العبيد الأذلاء، وآثرت الرفعة في الدنيا على الدرجات العلى، وانخططت عن العلو عند الله إلى السفلى!! ويحك! تدبر ما دهاك به الشيطان، أراد أن ترضى بتزكية العبيد كى لا تكون عند الله زاكياً ولا حميداً، ويحك إن خير الأمة إذا بلى بالمدحة أحد منهم كره ذلك وساءه، ومتى وجد في نفسه شيئاً استغفر الله واستعاذ به من شر ما بلى به، ونهى المادح عن العود إلى المدحة وشكروا الذى وجدوا من ذلك إلى رسول الله ﷺ فأمرهم بالاستغفار والاستعاذة من شرها فهو لأهل الفضل والنفى، وأهل المدحة في الأرض والسماء وكرهوا المدحة وأبغضوها إشفاقاً من ضررها، وهذا المتعبد يرتاح إلى المدحة ويرضى بها كأنه من أهلها، وهو أبعد الناس من استحقاقها، وسيرد الجاهل إلى ربه فيعرض عليه ذنبه وأقذاره فيجازى بالذى هو أهله أو يعفو الكريم بفضله؛ فتأسوا بخيار الأمة ولا ترضوا بالمدحة ولا تتعرضوا للمقت وجاهدوا أنفسكم على مقت ما بليتيم من حلاوة المدحة بالكراهة لها كفعل المهتدين فهذا فضل ما بين الرجلين! أحدهما - يكره أن يمدح وهو للمدحة أهل . والآخر: يُحب أن يمدح وهو غير مستوجبها . عصمنا الله وإياكم من السوء برحمته .

الباب السابع والثلاثون

خبايا النفوس لا يعلمها إلا الله !

إخوانى وإذا امتنع^(٢٣٢) الناس من المذمة، وأيقنوا منها، وحقدوا على الذم، ألا فراقبوا الله تعالى، وكونوا على خلافهم، وجاهدوا أنفسكم على الرضى بالمذمة،

(٢٣١) يقال له الفئح: رجلٌ سوءٌ، وعملٌ سوءٌ ورجلٌ سوءٌ، والرجلُ سوءٌ . والجمع أسواءُ والسُّوءُ: كل ما يغم الإنسان وكل ما يقبح، واسم جامع للأفات وجمعه - أيضا - أسواء .
(٢٣٢) المقص: المراد هنا الأذى، امتنع تأذى .

ففيه الخلاص والصدق إن شاء الله تعالى ؛ ففقدوا أنفسكم عند المذمة ، فإن لها كراهية ومرارة ، تسبق إلى القلوب ، ومنها الامتصاص في النفوس موجود ؛ لا يسلم منه إلا القليل ! إخواني : فمتى بليتيم بكراهية المذمة ، فجاهدوا أنفسكم على الصبر ، والرضى ونفى الغضب ، فإن الأنفة من المذمة ، تعقب بغضاء ، والحقد على الذام ، وإن الأنفة داعية إلى الكبر ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك ، وإنما يأنف من المذمة ، ويتمغص منها رجل عظيم في نفسه ، جاهل بأسوائه ، يحسب أنه غير مستوجب لِمَا دُمَّ به ، وإنى سأضرب لك في ذلك مثلاً ، كمثل كناس الكنيف^(٢٣٣) متلوث بالعدرة^(٢٣٤) فقيل له : ياكناس ، أنت بالعدرة ملطخ ، فاغسل مابك ، فاستعظم ما قيل له من ذلك ، فأنف ووجد على القائل ، والله إن المتلوث بالذنوب ، لأقدر من العذرة ، وأسوأ حالاً من الكناس ، فما امتعاضه وقد استوجب الدم سراً وجهراً في الآخرة والأولى ؟! فهذا أخسر منه لو يعلمون ! ما أخلق هذا أن يكون رجلاً عظيماً في نفسه حقيراً عند ربه !! إخواني : فمتى ابتليتيم بالمذمة ، فاشمأزت منها أنفسكم ، فلا تعجلوا بالغضب على الذام لكم ، وارجعوا بالنظر والتدبير ، واعقل مخاطبتي إياك ، والتعظيم في نفسك ، ألم تعلم أن الذام لك لا يخلو من إحدى ثلاث خصال : إما رجلاً ذمك نصحاً لك ، وإشفاقاً عليك ، فهو عظيم المنة ، واجب الطاعة ، فممّ امتغاصك^(٢٣٥) من نصح المشفق عليك ؟! لقد عظمت مصيبتك أن تغضب على من نصحك ! وأما الخصلة الثانية : فرجل غير ناصح لك ، فذمك بما عرفه فيك ، وعلمه منك ، وأظهره ، بسبك فذا قد أضرب بدينه ، ووجب عليك قبول الحق ، إن كان صادقاً في مقالته ، فدع الوجد عليه ، أو بادر بالإجابة قبل الفضيحة في الآخرة ، كما اقتضحت في الدنيا ، فإنك إن عنيت بشأنك ، فلك في نفسك شغل شاغل ؛ عن الموجودة على الذام وإن أبيت قبول الحق أنفة من قبول الحق ، بليتيم برد الحق على ربك تجبراً منك ، لقد تعرضت لسخط الجبار - عز وجل - ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك . وأما الخصلة الثالثة : فرجل اجترأ على الله بباطل افتراه ؛ بزور يقوله عليك ليسبك به ، فقد أتى البائس على نفسه ! وأما الذي نالك من أذاه ، وقول الزور فيك ، فيما اكتسبت يداك وعقوبة الذنوب ، وكفارة المساوية ، أو أجر عظيم يساق إليك .

(٢٣٣) الكنيف : المرخاض .

(٢٣٤) العذرة : الغائط .

(٢٣٥) تأذيك .

إخواني فاغتنموا نفع المذمة ، فإنه بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « إن حسناتك من عدوك ؛ أكثر من صديقك ؛ لأن صديقك يدعو لك ، فأما يجاب له ، وإما لا ، وأما عدوك فيقع فيك ، ويغتابك ، وإنما هي حسنات يدفعها إليك عفواً صفواً ، ولا يرضى حتى يقول : اللهم أهلكه . فقل : اللهم أصلحه ، اللهم ارجع به ، اللهم تب عليه ؛ فكتب لك حسنات »^(٢٣٦) . فهذه منافع لك من عدوك ، وقد مكثت من حسناته في القيامة تحكم فيها ، فالذام والمذمة ، أنفع لك في دينك ، وآخرتك من المادح والمدحة ، و﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾^(٢٣٧) . أخي فبادر بالعتو عن ذمك ، واغتابك ، عند الفقر إلى عفو الله عنك ، وإياك والجفد على الذام لك ، فما جرمه إليك بأعظم من جرمك ، فيما بينك وبين ربك ، فإن أنت طالبت من ذمك ، واستقصيت عليه ، فلا تأمن من أن يستقصى الله تعالى عليك ، ويطالبك بخقوقه ، فإذا أنت أسوأ الرجلين حالاً . وبعد فلو كنت في طهارة الملائكة من الذنوب ، وفي مثل المرسلين . من ربهم لوجب عليك أن تتبع محبة الله عز وجل ؛ فقد أوجب الله عز وجل العفو ، ومدح الكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس^(٢٣٨) فكيف وفيك من الأسوء ما الله به عليم؟! . ويحك لا يغرنك الشيطان ، بأنك مظلوم فيما دُهِيت به ، فتركن إلى الغرور ، وتأتى الرضى بالمذمة ، وتبه^(٢٣٩) في نفسك ، وتحقد على من ذمك . ويحك وإن كنت بريهاً من هذه الخصلة ، التي ذممت بها ، فإن لها عندك أخوات مؤبقات قد سترها الله عليك ، فلا ترى في نفسك النزاهة عن الذنوب ، ولا تأخذك حمية الجاهلية ، فيتخلى الله عنك ، ويزدريث الذي أنت به أهل ، فيبدو من فصاحتك ، وقبيح خبثك ، وتسخيم^(٢٤٠) وجهك ما يشغلك عن الموجدة على الذام . تدبر ما سمعت أيها العظيم في نفسه واعلم أن الله يعلم اللبيب كيف يتعظ بالمدحة والمذمة إذا بلى بهما ، يعلم أن المدح لا يليق بأمثالنا ولسنا لذلك أهلاً ، وقد علم الله منا مساوئ كثيرة ، والمذمة أولى بنا من المدحة والثناء ، والمدحة أبغض إلى اللبيب من المذمة ، لعلمه بفسادها للدين ، وقد بغض الله من أحبها ، وذلك اللبيب إذا بلى بالمذمة ، أيقن أن الذي فينا من الأسوء ، أكثر مما به قد ذمناه وأن الإنابة من أسوائنا ، أولى بنا من الوجد

(٢٣٦) أورده الغزالي في الإحياء (٤/١٨٦١) .

(٢٣٧) الزمر : ٩ .

(٢٣٨) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ في سورة آل عمران الآية (١٣٤) .

(٢٣٩) تاه : تكبر . والمصدر تها وتها .

(٢٤٠) السُّخَام : سواد القدر أو الفحم . والمراد السواد .

على الذام لنا ؛ فالناصح المَهْدِي إلينا معرفة عيوبنا مستوجب للمحبة ، والشكر منا .
وأما المفتون العظيم في نفسه ، فما يتعظ بمدح ولا بدم ، تجده يرتاح إليها ، ويحب المضير
بدينه ، ويتمغص^(٢٤١) من المذمة ، كأنه غير مستوجبها ، ويغض الناصح المهدي إليه
عيوبه ؛ فالمادح والذام يضران بدين المستمدح ، وما يشعر . فهذا فضل ما بين الرجلين .
أحدهما : يتمغص من المذمة ، وهو أولى الناس بها . والآخر يرضى بالمذمة ، وهو أظهر
الناس منها . أخى : إن عقلت ما وصفت لك ووعيته ، فإن لك في رعاية من نفسك ،
والاعتاظ بمساوئك ، والنظر في أحوالك ، والإنابة إلى مولاك من مساوئك شغلاً شاغلاً
عن الموجدة على غيرك ، فراقب الله ، واحذر أوزار الحقد ، والغضب على الذام ،
وتضرع إلى الله عز وجل ، في دوام ستره ، وتمام النعمة ، فلن تزال بخير ، ما كنت
في كنف الله عز وجل عالماً بأبائيه ، عاملاً في الشكر له ، معترفاً بالإساءة والتقصير ،
خاضعاً للحق متواضعاً لله ، فإن ذلك أبلغ في رضوانه ، وأوصل إلى درجة الشاء ،
والمدحة ، من الله عز وجل ، ومن ملائكته في مواقف القيامة ، وزمرة الأولياء ،
وسأصف لكم في الذم ، والمدح صفات ، من خبايا النفوس من العابدين بزعمهم ،
عسى الله عز وجل أن ينفع بمعرفتها ، وذلك أن منهم من يعمل بأنواع البرّ لله ، لا
يريد بها سواه ، ولا يجب أن يحمده الناس ، وإن بلى بالمدحة نفى حبا عن قلبه ؛ فهذا
كله حسن ؛ فيه دلائل على الإخلاص ، غير أنى أخشى على العابد ، مكائد من خبايا
النفوس ؛ يعجز مثل عن القيام بها ، وذلك أنى أحسب عابدم إذا مدح وعُظّم ، لم
يجد في نفسه الكراهة ، مثل غم المذمة لا ولا يجد من استقبال المادح بالغضب عليه ، كما
يجد على الذام ، وعسى أن تكون مجالسة المادح ، ومكالمته الدهر أخف على قلب العابد ،
من النظر إلى الذام ، ومكالمته إياه مرة واحدة ، وعسى العابد أن يتحمل للمادح ،
ويتكفل قضاء حوائجه بالبشاشة ، وعساه لا يسعى للذام في حاجته ، ولا يجود له
بقيراط ، وعسى قطيعة الذام دهره ، أهون على العابد من هجران المادح ، وعسى
الكبيرة تكون من المادح أخف على قلب العابد ، والصغيرة ، من الذام أعظم عند
عند العابد من كبائر المادح ، وهذا وأشباهه من خفايا النفوس ، والعابد في غفلة من
الزلة إمهالاً ، أما بلغك ، أن العبد لا يستكمل حقيقة الإيمان حتى يكون ذامه ،
ومادحه ، في الحق عنده سواء ، وعسى عابدم لا يساوى بين الذام ، والمادح في البرّ ،

والتكرمة لهما ، ولا يساوى لهما في الموجدة عليهما ؛ فالعابد منقوص بذلك عن حقيقة الصدق ، وما يشعر . فمتى شئتم فاسألوا عابديكم عن نفسه ، وليقل الحق ، هل يجد للمدحة ، والتعظيم مثل كراهة المذمة ؟ وهل يرضى بالمذمة كرضاه بالمدحة ؟ وهل يستقبل الذام كما يستقبل المادح ؟ وهل يخف على قلبه الذام كما يخف على قلبه المادح ؟ فإن زعم أن الذام ، والمادح ، يجريان عنده مجرى واحد ، والمدح والذم عنده سواء ، فإن جعلوا في ناصية العابد عُصاة يعرف بها ، ويشار إليه ، فإنه إمام زمانكم ، إن كان كما يزعم ، والله سائله عن دعواه ، وعسى يرجع عند المسائلة عما ادعاه ؛ وإن أقر عابديكم أن المدحة ، والمذمة ، لا يستويان عنده ، فالصدق أولى به وبنا ، والاعتراف أنجى له ولنا ، ولذلك المادح والذام لا يستويان عنده ، وفقنا الله وإياكم للصدق في جميع الأحوال . إخواني : سأصف لكم من أحوال الصادق عند المدحة ، والمذمة ؛ صفات عسى الله أن ينفع بمعرفتها ، وذلك أن أخلاق الصادق ، أن رضاه بالمذمة ، إذ صارت له حسنات أكثر من رضاه بالمدحة ، لأن المدحة تضر ولا تنفع . من أخلاق الصادق ، أن يرق على الذام ، ويرحمه ، ويخصه بالدعاء أكثر ، لنفى الحقد من قلبه ، ويتفضل عليه عند حاجته ، أقتحسون عابديكم يفعل ذلك ؟! وبعد : فإن أولى الأشياء أن يجبه العابد ؛ لأنه ينفعه في الآخرة ويزيل حسناته ، ولا سيما إن لم يضر بدنياه ، وذلك أن المذمة ، والغيبة ، لا ينقصان من رزقه ، وينفعانه في آخرته ، ويزيدانه في حسناته ، وأحسب عابديكم يقول : لا حاجة لي في المذمة ، ولا في حسناتها ، فأين الصدق ؟! ويحك ! فما عندك في بغض المذمة النافعة لك في الآخرة ، وأنت تزعم أنك طالب للحسنات ، وهذه حسنات لك من غير اكتساب ، ولا تعب ولا نصب ، فإن زعمت أنك إنما غضبت على الذام المغتاب ، لأنه عصى الله فيما اغتابك به ، فما ترى في الناس من هو أكثر ذنباً ، وأعظم جرماً ، من الذي اغتابك ، وذمك ، ومالك لا تغضب على نفسك إذا ذممت عباد الله وهذا من خبايا النفوس وأنت في غفلة . أيها العابد فكُن على يقين أن نفسك لنفسك تغضب ومن ذمها امتعضت ، وتعتلى على الله بغضبك على الذام المغتاب ، فتزداد من الله بعداً ، ألا وإن أولى الأشياء بأن يبغضه العابد لأنه أضر بعبادته لاسيما إن لم تزد في رزقه تلك المدحة ، فإن المدحة لا تزيد في الرزق شيئاً وتضر بالعبادة ، ما حجة العابد ، إذا لم يكره المدحة ؟! وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « رأس التواضع أن تكروه أن تُذكر بالبر والتقوى » (٢٤٧).

(٢٤٧) أورده الغزالي في الإحياء وقال الحافظ العراقي : لم أجده له أصلاً انظر الإحياء (٤/١٨٦٣).

ويحك أيها العابد ! إن مادحك أحق بالهجران من ذامك ؛ لأن المذمة حسنات ، والمادح قد عرّضك بالمدحة للفتنة وعرّض عبادتك للتلف ، وقد نبى رسول الله ﷺ عنها فقال للمادح : « ويحك قطعت ظهره فلو سمعك - يعنى المددوح - ما أفلح إلى يوم القيامة » (٢٤٣). فقول الحق ﷺ ، مشفقاً عليك ، وعلى عبادتك ، فلم يكثر المادح لنبى رسول الله ﷺ إياه عن المدحة . ولم يبال - بل لا أفلح أبداً ؛ فهذا أولى بالهجران ، إذ عصى رسول الله ﷺ ، وأنت لم تكثر لعطيك . وأحسبك أيها العابد تبرم وتكره هذا المادح ، أن تحقق المدحة عبادتك ، وعساك لا تغلح مع المدحة أبداً ، وأنت غير مكترث لذلك ، ولا يروعك قول رسول الله ﷺ ، ولا تحزن للمدحة فأين الصدق !؟ ويحك ! وذلك إن امتحنت ، وابتليت بالمذمة ، وسقوط المنزلة عند الناس ، ولا ترى محمول الذكر نعمة ، ولا ترضى بالمذمة النافعة لك في الآخرة ، ولا تتعظ بها ، ولا تشغل بالإجابة عن الموجدة على الذام ، فأين الصدق !؟ ويحك ما بلغك أن كعباً قال : « لن تنالوا شرف الآخرة ، حتى تسقطوا أنفسكم ، وأعمالكم ، وحتى تكرهوا المدحة ، ولا تبالوا بالمذمة » . أيها المغرور العابد : كفى بك جهلاً ، أن تغضب على الذام لك ، وباغتيابه لك حسنات ، وتحب المادح وقد عرّضك للتلف ، وتأنف من المذمة - وأنت مستوجبها - والمذمة تنفك في الآخرة ، وأنت لها كاره ، وترضى بالمدحة ، ولست من أهلها ، وهى تضر بدينك ، وأنت لا تحزن لها ، فأين الصدق !؟ ويحك فإن زعمت أن كراهتك للمذمة ، لأنك من الأسوء طاهر ، وأن رضاك بالمدحة لأنك مستوجبها ، فأنت حينئذ أهل أن يضحك بك الضاحكون ، ويستهزئ بك المستهزئون ، وأنت مستوجب للمقت من ربك . أيها العابد تدبر ما وصفت لك من خبايا النفوس ، هل تجد شيئاً منها أم أنت طاهر من كلها ؟ أم اجتمعت كلها فيك جميعاً ؟ فتدبر ما وصفنا من أخلاق الصادق عند المدح ، والذم ، هل تجد شيئاً فيك منها ؟ وترغم أنك أكملتها كلها ! أيها العابد إنك من فقراء آخر الزمان ، ومن نفاية الأمة ، لا أحسبك تقوى على هجران المادح ، والإحسان إلى الذام دهرك هذا - والله يمين على من يشاء من عباده ، وأن الذى وصفنا من أخلاق الصادق ، لبعيد عن أمثالنا ، فليتك أيها العابد ، لا تعجب بالتعظيم لك ، ولا ترتاح للمدح بالباطل ، وليتك أوداج^(٢٤٤) لا تنتفخ غضباً من المذمة ، وليتك لا تحقد على الذام حتى تنتقم ،

(٢٤٣) سبق تخريجه .

(٢٤٤) الوَدَجُ والوَدَاجُ : عرق فى العنق يقطعه الذابيح فلا تبقى معه حياة . (ج) أوداج . وانتاخ الأوداج كناية عن الغضب .

وتشفى صدرك ، وإن ملكت نفسك عن ذلك ، فأنت إمام زمانك ، وواحد في دهرك واعلم أيها العابد إن كنت في الأصل تريد الله عز وجل ، فأنت بعيد عن الصدق في أحوالك ، هيات ! ما أقعدك عن الصادقين . يا قوم : جاهلوا أنفسكم على بغض المدحة ، والرضى بالمذمة ، فإنه بلغنا حديث - إن صح ذلك من قول رسول الله ﷺ ، إنه لقاصم الظهر لأمثالنا^(٢٤٥) . وبلغنا عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : «ويل للصائم ، وويل للقائم ، وويل لصاحب الصوف إلا من ، فقيل إلا من يارسل الله ؟ قال : إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا ، وأبغض المدحة واستحب المذمة^(٢٤٦) . يا قوم فمتى نصير إلى حب المذمة ، ونبغض المدحة ، والله ما سلمنا من حب المدحة ، ولا كراهية المذمة ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، وإياه نسأل العصمة ، والعفو ، والصفح ، والنجاة ، إنه جواد كريم . يا قوم ، فبمثل هذه الآداب ، فتقربوا إلى الله تعالى ، فإن ذلك أبلغ في رضوان الله تعالى من العبادة مع الجهل بما وصفنا . إخواني ، وبعد فإن الناس في المدح والذم أصناف ، فمنهم من يتمنى المدحة ويعمل بأنواع البر حباً لها^(٢٤٧) ، فهذا هالك ، أو يتوب الله عليه . ومنهم من لا يريد المدحة ، فإذا بلى بها ، سبق السرور ، فجاهد عن نفى ذلك عن قلبه ؛ فهذا في طريق المجاهدة ، يقع مراراً ، ويقوم مرة ، ويرجى له الخير ، وهو على خطر . ومنهم من إذا بلى بالمدحة لم يُسر بها ، لعلمه بضررها ، غير أنه لا يجد في نفسه الكراهة ، ولا الاعتماد لها ، فهو على خير إن شاء الله ، وبقي عليه من الإخلاص بقايا . ومنهم من إذا بلى بالمدحة ساءته ، وكرهها في نفسه ، وعجز عن الغضب على المادح ، فهو على خير ، ويرجى له الوصول إلى الصدق . ومنهم من إذا بلى بالمدحة غضب منها ، ووجد على المادح ، فهذا في باب المدحة على سبيل هدى ، وبقي عليه في باب المذمة بقايا . ألا وإن الناس عند المذمة أصناف : فمنهم من إذا دُمَّ غضب على الذام ، وحقد عليه ، والتمس الانتقام ، فهذا متجبر هالك ، أو يتوب الله عليه . ومنهم من إذا بلى بالمذمة يتمغص^(٢٤٨) من مقابلة الذام إظهاراً للورع تزيئاً ورياء ، ويلتمس مما قيل فيه المعاذير ، وإن نيران المذمة تستعر في جوفه ، يتمنى فضائح الذام ، وبواره ، فهذا قريب من الأول ، ودونه في الهلاك . ومنهم من إذا بلى بالمذمة يتمغص منها ، ويتجرع مرارتها خشية أن يعاتب بأكثر منها ،

(٢٤٥) سبق تحريجه .

(٢٤٦) أورده الغزالي في الإحياء وقال الحافظ العراقي : لم أجده هكذا ، انظر الإحياء (٤/١٨٦٣ ، ١٨٦٤) .

(٢٤٧) أى حباً للمدحة .

(٢٤٨) تمغص الشيء فلاناً ومنه آذاه .

وإن بغض المذمة مستوطن في قلبه . ومنهم من إذا بلى بالمذمة كرهها ، ووجد منها ، وجاهد نفسه على الصبر عليها ، رغبة في الثواب ، لا يحقد على من ذمه ، غير أنه يستثقل الذام ، فهذا طريق المجاهدة . يقع مراراً ويقوم مرة . ومنهم من إذا بلى بالمذمة ، سبق إليه بالكراهية ، فيرجع ، ويتيقظ ، ويعلم أنه مستوجبها فيسلى ذلك عنه ، غير أن حال الذام في قلبه ، بخلاف حال من لم يذمه ، فهذا على خير ، وبقي عليه من الصدق بقايا . ومنهم من إذا بلى بالمذمة لم يكرهها ، لكنه تواضع ، وخضع لها ، وأجرى الذام له ، ومن لم يذمه بمنزلة واحدة ، فهذا على المحجة يرجي له الوصول إلى الصدق . ومنهم من يقول في قلبه الحق^(٢٤٩) ويرجع بالبغضاء على نفسه ، فإذا بلى بالمذمة - رضى بها - وعلم أنه أهل لها ، ولأكثر منها ، وما صرف عنه منها ، علم أن ذلك ستر الله ، وكانت المذمة غيمة له ، إذ صار بالمذمة أوضع الناس ، وأحقر عندهم ، وأسلم لدينه ، وصارت المذمة ، له حسنات من غير سعي ، ولا نصب ، فهذا واحد في زمانه . وبعد فإن جميعهم ينتقلون عند المدح ، والذم ، من حالة إلى حال في الساعة واليوم ، والشهر واليوم ، فمنتقل عن حاله متقدم مقبل ، ومنتقل عن حالة مؤلّ مدبر ، فتفقدوا الأصناف في أيها تجاهدون أنفسكم . وبلغنا أن الرياء ، بضع وسبعون باباً وروى « أن الرياء ، أخفى من ديب الثمل على الصفاة »^(٢٥٠) . وعقلى يقصر عن ديب الثمل ، فكيف ما هو أخفى منه ؟ وفيما وصفنا كفاية للعاقلين ، فكيف لعابدين أن يقوم ببعض هذا ؟ وكيف بكل ما وصفنا ؟ وهب الله لنا ولكم ، الصدق في جميع الأحوال .

الباب الثامن والثلاثون تفقد القلوب وبيان معاصيها

إخواني : وإذا تورع الناس عن ذنوب الجوارح الظاهرة ، فغضوا الابصار ، وانصتوا عن الغيبة ، وكفوا عن الظلم ، وتركوا الخوض في الآثام وتخلصوا من تناول الحرام ، وكونوا من أتركهم له . ياقوم وتفقدوا مع ذلك ذنوب القلوب ، فإنهن المهلكات القاصمات ، وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ ، قال : « في ابن آدم مُضغَّةٌ ، إذا فسدت فسد الجسد كله ، وإذا صلحت صلح الجسد كله ، ألا وهو القلب »^(٢٥١) وقال

(٢٤٩) في المخطوطة : الحق .

(٢٥٠) أخرجه أحمد في المسند عن أبي موسى الأشعري ، انظر المسند (٤/٤٠٣) . والصفة : الحجر العريض الأملس .

(٢٥١) أخرجه البخاري عن النعمان بن البشير - انظر تمام الحديث كتاب الإيمان - باب فضل من استبرأ لدينه . .

عليه الصلاة والسلام : « من أصلح جُوانِيه ، أصلح الله بَرَانِيه ، ومن أصلح سريره ، أصلح الله علاِيته » (٢٥٢). وقال بعض أهل العلم : « السرائر التي تخفى على الناس ، ومن عند الله بَوَادٍ - اطلبوا دواءهن ، وما دواؤهن إلا أن تتوبوا وتعدلوا » . وبلغنا أن سليمان عليه السلام قال : « من أفسد جوانيه ، أفسد الله برانيه » . ألا تدبروا عظم معاصي القلوب ، فإن منها : الشرك ، والشرك ، والنفاق ، والكفر ، ومنها الاغترار بالله عز وجل ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، ومن معاصي القلوب : احتقار الذنوب ، والتسوية بالإنيابة ، وقلة الاكتراث بتراكم الأوزار ، والإصرار على المعاصي ، والرياء . ومن معاصي القلوب ، العجب ، والنفاق ، والتفاخر ، وحب الزينة ، والمباهاة في الدنيا . ومن معاصي القلوب التعزز ، والتكبر ، والزهو ، والأنفة من المسكنة ، ومن كثير من أعمال الحلال ، يرضاها الله ، ويحبها ، والعبد يأنفها . ومن معاصي القلوب ، التقرب إلى الأغنياء ، والخضوع لهم ، والتباعد من الفقراء ، والأنفة منهم . ومن معاصي القلوب ، النكث ، والخيانة ، والغدر . ومن معاصي القلوب ، الحسد ، والغل ، والحقد ، والشماتة ، والعداوة ، والبغضاء ، وسوء الظن ، والتجسس ، وإضمار السوء ، والتربص بالدوائر . ومن معاصي القلوب ، مساعدة الهوى ، ومخالفة الحق . ومن معاصي القلوب ، الرضى بالهوى ، والحب ، والبغض بالهوى . ومن معاصي القلوب ، الجفاء ، والقطيعة ، والقسوة ، وقلة الرحمة . ومن معاصي القلوب ، الأمانى ، والحرص ، والشرة ، والطمع ، والطمرة . ومن معاصي القلوب ، الطغيان بالمال ، والفرح بإقبال الدنيا . ومن معاصي القلوب ، استقلال الرزق ، واحتقار النعم ، واستبطاء الله في القطيعة . ومن معاصي القلوب ، استعظام الدنيا ، والحزن على ما فات منها . ومن معاصي القلوب ، الأسف على فوات أهوائها ، والشرة بموافقة شهواتها المردية . ومن معاصي القلوب الاستهانة بعلم الله تعالى بمساوئها ، ومنها قلة الحياء باطلاع الله عليها . وقد بلغنا أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « يا صاحب الذنب لا تأمن من لا يؤمن ، ولا تأمن من جميع الذنب ، فإن قلة حياتك ممن على اليمين وعلى الشمال من الملائكة ، وأنت على الذنب أعظم من الذنب إذا

- وأخرجه مسلم في صحيحه عن النعمان أَيْضًا - انظر كتاب المساقاة - باب أخذ الحلال وترك الشبهات . (٢٥٢) أخرجه الديلمي عن قدامة بلفظ : « من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن أصلح جُوانِيه أصلح الله برانيه ، ومن أراد وجه الله أناله الله وجهه ووجوه الناس ، ومن أراد وجوه الخلق منحه الله وجهه ووجوه الخلق ، انظر (الفردوس بمأثور الخطاب) (٥٨١/٣) حديث (٥٨١٩) .

علمته وعملته ، وفزعك من الريح إذا هبت وحركت ستر بابك وأنت على الذنب ، ولا يفرق^(٢٥٣) فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته . تدبر هذا الحديث أيها المغرور ، فإنك تزعم أنك عند الذنب تستحي من الآدميين ، وأراك لا تستحي من الكرام الكاتبين ، وأنت تخفى ذنوبك من المخلوقين ، وأراك لا تكترث لاطلاع رب العالمين ، تريد بزعمك ثواب الصادقين ، ومرافقة المرسلين أف لك ! ويحك ! ما أعظم جهلك ! لا أنت من ملائكة الرب - عز وجل - تستحي ، ولا أنت بنظر الجبار إليك تبالي . يا قوم فتدبروا ما أصف لكم من معاصي القلوب ، وتفقدوا خفيات آثامها واعتقاد معاصيها ، وسوء ضمائرها ، ودقائق شهواتها ، ومكنون أهوائها ؛ فجاهدوا على نفى ما خالف رضوان الله تعالى من سرائركم فما عُصِمتم منه فاحمدوا الله عليه وما بُليتم به ، فبادروا بالإجابة والانتقال ، وتضرعوا إلى الله عز وجل في العصمة والعفو ، فإن الله تعالى يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تبتدون وما تكتُمون إنه عليم بذات الصدور . إخواني فمتى سلمتم من آثام القلوب ، فأنتم التاجون من عذاب الله تعالى عز وجل ، وإن أصررتم على خبث السرائر ، فما أقل عناء^(٢٥٤) الجوارح ، وهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما يتورع عن المعاصي المعروفة عنده وعساه جاهل بعظم الضمير فينطوى على كبائر تأتي عليه وما يشعر . والآخر عالم بأهواء النفوس متفقد لأحوال سرائره بجانب لمكاره الله في ظاهر الأمور وباطنها ، فهذا أوزن من صاحبه كثيراً ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته . آمين يارب العالمين .

الباب التاسع والثلاثون

التنافس في أعمال البر والتقرب إلى الله بطاعة القلوب

إخواني : وإذا تقرب الناس إلى الله عز وجل ، بأنواع البر الظاهرة ، مثل الحج والجهاد والصوم والصلاة والصدقة والزكاة وتلاوة القرآن وغير ذلك فنافسوهم فيها واجعلوا أعظم الرغبة في طاعة القلوب التي لا يطلع عليها الإنس ولا الملائكة ولا يعلمها غير علام الغيوب فإن القليل من أعمال البر كثير . بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « إن الذكر الذي لا يكتبه الحفظة يزيد على الذكر الذي يكتبه الحفظة بسبعين

(٢٥٣) يفرق : يخاف .

(٢٥٤) أى ما أقل عناءها في فعل الخير ! فقد حفت الجنة بالمكاره ، بينما حفت النار بالشهوات !

ضعفاً^(٢٥٥). ألا فتقربوا إلى الله بطاعة القلوب ، فإن فيها المعرفة بعظمة الله تعالى وكبريائه وجلاله وقدرته وعظيم قدره سبحانه ، فأين العالم بتعظيم الرب عز وجل وإجلاله وتكرمه والهيبه له والاستحياء منه وأنى يكون له ذلك ؟ ألا فتقربوا إلى الله بمحابه ، وبغض مكارمه ، والرضى والغضب له وفيه . وتقربوا إلى الله تعالى ، بشدة الحب له ، والحب فيه ، والبغض من أجله . وتقربوا إلى الله بالمعرفة بأيديه الحسنه ، ونعمه المتظاهرة والباطنه وأفعاله الجميله ، ومننه المتواترة على تواتر الإساءة منا ، وهو يعود بأنواع النعم علينا . ألا فتقربوا إلى الله تعالى بالخوف من زوال النعم ، وشدة الحياء من التقصير في الشكر . وتقربوا بالوجل من مكر الله تعالى ، والإشفاق على إيمانكم . وتقربوا إلى الله بشدة الخوف منه ، وحقيقة الرجاء فيه ، والسرور بذكره ومناجاته والشوق إليه ، والرغبة في جواره . وتقربوا إلى الله تعالى بذكر اليقين والتوكل عليه والثقة به والطمأنينة إليه والأنس به والانقطاع إليه ، وأين أولئك؟! ألا فتقربوا إلى الله تعالى بالوقار ولين الجناح والتواضع والخشوع والخضوع ! وتقربوا إلى الله تعالى بالحلم والاحتمال وكظم الغيظ وتجرع المرارة . وتقربوا إلى الله تعالى بسلامة الصدور ، وإرادة الخير للأمة وكراهة الشر لها . وتقربوا إلى الله بالرأفة والرحمة والشفقة والحوطة^(٢٥٦) على المسلمين . ألا وتقربوا إلى الله تعالى بالجرّد والكرم والتفضل والإحسان وصدق الوفاء . ألا وتقربوا إلى الله تعالى بغنى النفوس والقناعة والكفاف والرضى بالبلغة^(٢٥٧) واليأس من نائل الناس . ألا وتقربوا إلى الله بالثبّت والعبارة والتأني والنظر . وتقربوا إلى الله تعالى باستكثار نعمه لديكم ، والاحتقار بركم والازدراء على أنفسكم ، واستعظام معاصيكم ، والحزن بتقصركم في أمور ربكم . وتقربوا إلى الله بالتدبر لكتابه ، والإضمار على القيام بحدوده ، وإخلاص الأعمال له . وتقربوا إلى الله تعالى بمجاهدة الشيطان عن دينكم ، ومخالفة الهوى في سريرتكم ، والتفقد لأحوالكم ، والتقوى في كل أموركم ، والندم على ما أسلفتم . ألا وارغبوا في مكارم

(٢٥٥) أخرجه أبو يعلى عن عائشة بلفظ : فضل الذكر الحفى الذى لا يسمع سبعون ضعفاً ، فإذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق لحسابهم . وجاءت الحفظة بما حفظوا وكتبوا ، قال الله لهم : انظروا هل بقى له من شيء ؟ فيقولون : ربنا ماتركنا شيئاً مما علمناه وحفظناه إلا وقد أحصيناه وكتبناه ، فيقول الله تبارك وتعالى له : إن لك عندى شيئاً لا تعلمه وأنا أجزيك به . وهو الذكر الحفى . وقال الهيثمى : فيه معاوية بن يحيى الصدوق ، وهو ضعيف . انظر (مجمع الزوائد) للهيثمى - كتاب الذكر - باب ماجاء في الذكر الحفى (٨١/١٠) .

(٢٥٦) حاط : حوطاً وحياطة : حفظه وصانه وتعهده .

(٢٥٧) البلغة : ما يكفى لسد الحاجة ولا يفصل عنها .

الأخلاق ، وتقربوا إلى الله بأداء الأمانة إلى من خانكم ، والإحسان إلى من أساء إليكم ، والإيثار على أنفسكم ، وإن كان بكم خصاصة . وتقربوا إلى الله بإيثار الرخصة^(٢٥٨) على الرفعة ، وإيثار الشدة في الله على الرخاء ، وإيثار الفقر على الغنى ، وأتني لكم ذلك !؟ وتقربوا إلى الله بالفرح بمصائب الدنيا ، والسرور بنظر الله ، واختباره فيما بلى وأولى ، وأتني لكم السرور بذلك !؟ وتقربوا إلى الله تعالى بذكر الموت والبعث دائماً ، وطول الوقوف دهرًا طويلاً ، وبماذا يجيب عند السؤال ، وذكر الورد ، حقاً عليها ، وعبوركم على جسور الصراط . إخواني فارغبوا فيما نعت لكم ، من أعمال القلوب وطاعتها ، فإن العارفين بها قليل ، والعاملين بها عزيز ، وقد جاءت الأنبياء عن الله عز وجل ، وعن رسول الله ﷺ بفضل أعمال القلوب . وقد بلغنا أن الله جل ثناؤه يقول : « لست أنظر في كلامكم ، ولا إلى أعمالكم ، ولكن أنظر إلى هممكم ، وإلى قلوبكم ، فأبما قلب وافق همته محبتي جعلت ضمنه تسيحاً ، وتهيلاً ، وتقديساً »^(٢٥٩) . وبعد : فإن طاعات الجوارح بالقلوب صلاحها وفي فساد القلوب تضييع لطاعات الجوارح فلا تضيعوا حظكم من أعمال السرائر ، ففيها الخزم والفضل العظيم ، فهذا الوصف يقصر عن قدرها عند تحصيل ما في الصدور ، والناس عنها غافلون . يا قوم : فما أتاكم الله منها شكرتم ، وما قصرتم عنه حزنتم ، وتضرعتم إلى الله في الفضل ، والتسديد لرضوانه فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما يستكثر من أعمال البر الظاهرة ، وعساه محزوب من جوانب الباطن^(٢٦٠) . والآخر يستكثر من أنواع البر ، ويعتقد جوائحه الباطنة ومثالبها ، متحرراً في مسرات الله فيها ، فهو أوزن من صاحبه كثيراً وأعلى عند الله قدراً ؛ فهذا ونحوه من فضل العلم والعقل وفضل النية والإرادة فرق ما بين العباد ، وقد يستوى الرجلان في الورع والعقل والبر ، وأحدهما أرجح من الآخر عقلاً وأشد تحريماً لمسرات الله تعالى ، وأبلغ في رضوانه . وهب الله لنا ولكم علماً نافعاً وعقلاً راجحاً . إنه جواد كريم رعوف رحيم .

(٢٥٨) المراد الذلة على المسلمين . ويقال : وضع فلان نفسه : ضد رفقها .

(٢٥٩) أخرجه أحمد في المسند «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ، انظر المسند (٢٨٥/٢) .

(٢٦٠) المراد : وعساه فاسد السيرة .

الباب الأربعون آفات العلم

إخواني : وسألتكم عن أحوال الذين أظهروا العلم وأحوال البر ، ورجبوا في خمول الذكر : ما أرادوا بذلك من سره ؟ إخواني لقد سألتكم عن أهواء مختلفة ، وإرادات متباينة ، وعقول متفاوتة ، وأسُوف بعض أحوالهم ؛ بمنّ الله وإرشاده ؛ وذلك أن منهم من يظهر ما عنده من العلم والعمل لينال به من عرض الدنيا ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك . ومنهم ضعيف الرأى لا يقاد لعلمه^(٢٦١) ، جاهل بأدواء النفوس ، قليل المعرفة بمكائد الشيطان ، وهو يظهر كثيراً من العلم والعمل ، رغبة في ثواب إرشاد الناس ، وقد غرق في بحار الفتن والجهل ، وأتت عليه مكائد الشيطان ، وما يشعر ! ومنهم مُتداه^(٢٦٢) في نفسه مدع للعلم والفضيلة بمكائد الشيطان ، فيظهر كثيراً من أعمال بره وعلمه في الاقتداء ليكون له مثل أجور القابلين منه فنصب^(٢٦٣) لذلك نفسه ، وسهر ليله ونهاره ، واشتد عليه حرصه وهو به مسرور ، ونفسه تمنيه أن الذى هو فيه من أعلى الأعمال عند ربه وأنه مأجور على حرصه وسروره باجتماع الناس إليه للمنافع التى أنالهم الله على يديه بزعمه فيما يرى فلا يشك أنه كذلك فى مبلغ علمه ، وأنه ناظر لنفسه بزعمه ، يرى الفضل بإظهار ما أحسن من قوله وفعله يؤمل العزم فى أمره ، ويطمع فى دفع الفتنة عن نفسه ، وينفى الآفات عن علمه ، يرتجى الصدق والإخلاص فى أحواله . وعساه كالذى بلغنا أن الشيطان يقول : من زعم أنه بعلمه امتنع منى ، فيجهله وقع فى حباتلى ؛ فالجهل أولى به إذا ادعى النفاذ فى علمه والقوة فى عقله وفعله ، يتصنع فيما أظهر من القول والعمل ، كيما يؤكد بهما أمره ويصوب بهما فعله ، ويشها فى الآفاق لمنافع الناس بزعمه فيقتبس ذلك عنه ويعلو بها ذكره وكذلك أمينته وما يشعر ! وعساه كبعض المغترين من قبله ؛ فإنه بلغنا أن حكيماً من الحكماء قرأ ثلاثمائة وستين مصحفاً^(٢٦٤) ، فأوحى الله تعالى لى نبي زمانه قل له : إنك ملأت الأرض نفاقاً ، وإن الله لم يقبل من نفاقك شيئاً . وعساه يحتمل

(٢٦١) أى لا يقاد لعلمه فيعمل بما علم .

(٢٦٢) أى يطويها على الدهاء والمكر .

(٢٦٣) أى وطنها وأعداها لذلك .

(٢٦٤) المصحف : مجموع من الصحف لى مجلد . وغلب إطلاقه على القرآن الكريم .

التَّصَبُّ والتَّعَبُ لإظهار علمه ، وإصراف وجوه الناس إليه لا يعدل به شيئاً ولا يؤثر عليه بَرّاً . وعساه مشغول به عما أوجب عليه من أمرهم ، وهو مع ذلك لا يألوا في حسن النطق وإتقان الكلم ، ويزعم أن ذلك حكمة تجرى على لسانه . وعسى ذلك تجويد من نفسه لكلامه وما يشعر ! وعساه يظن بلا شك أن القابلين منه : رغبتهم في علمه ، ورضاهم إنما هو لصدقه وإخلاصه ونفاد علمه ، ولولا ذلك ما قبلوا منه ، فقد دهاه الشيطان ، وما يشعر ! وهو يكثر حمد الله فيما أجرى من المنافع على لسانه . وعساه هنالك له أمرٌ وأمانة يتنعم بها لنفسه ، يكرم من صوب فعله وير من حمد أمره وينقبض عن خالفه ويجفو من استفاد من غيره ، ويعصى من خالف هواه ، ويجد على من رد شيئاً من قوله متجبر في غضب مستنصر لنفسه ، يشفى بذلك غضبه لربه تأديماً لمن خالفه ، وقد دهم . وما يشعر ! وعساه يفضل بعض أصحابه على بعض ، لا يساوى بينهم في القدر عنده ويزعم أن أخطأهم لديه أفضلهم علماً ودينياً ، وإنما كان المقدم عنده وأعزهم عليه أبرهم به ، وأشدهم موافقة لهواه وتعظيماً له وتزيئاً لأمره ، وهذا من خبايا النفوس ، والعالم في غفلة وما يشعر ! وعساه يلبث بذلك عمره أو برهة من عمره مموهاً عليه في أمره يلتمس الأجر في غيره ، ويضيع الحزم في خاصة نفسه ، ويطمع أن يكون بما هو فيه من الثواب ، ما يكفر آثامه ، ويكون فيه عوض مما ضيع من شأنه ، وقد دهم وما يشعر ! وعسى الأخاويض^(٢٦٥) تكثر في أمره فقوم ينقمون عليه ويعيبون له فعله . وآخرون يحققون فعله ، ويحسنون به الظن كحسن ظنه بنفسه . وقوم مستور عنهم شأنه كما كان عنه مستور أدواء نفسه فهو مستور بالمختلفين إليه شديد الإعجاب بالقابلين به . وعساه يحقق صدقهم ، ويصحح إخلاصهم ، ويزين أفعالهم ، وأصحابه في ذلك مستورون عنه بحالتهم عنده يعجبون بمنازلهم منه فاتفتت أهوائهم على تزكية بعضهم بعضاً . وبعد : فإن علا ووصلت النفوس إلى أمنيته من اضطراب الصوت وعلو الذكر ، وكادت النفوس تستصغر من ليس في شأنها ، وتستجهل من جهل علمها ، وتزدرى من لم يكن مثل أحوالها ، وما يعلم القوم ذلك من أنفسهم قد دهاها وما يشعرون ! وبعد : فإن قديم الحيل^(٢٦٦) يستقل لهم ما قد دهاهم به فيجدد لهم مكائده موبقات ، وعساه يأتي الكبير والمنظور إليه منهم كهيفة الناصح له فيخطر بقلبه : أنك قد أوتيت حظاً من العلم ،

(٢٦٥) خاض في الأمر : تمادى فيه .

(٢٦٦) صاحب الحيل من قديم ألا وهو الشيطان منذ أن احتال على آدَمَ في الجنة .

وأخذت منه بحمد الله نصيباً ، غمًا لك والشهرة والتعرض للفتنة شأنك والعمل بما علمت . ويحه لقد دهاه ، وعرضه للهلاك وما يشعر ! فعند ذلك كل امرئ ينفرد من أكابره في عصابة اتبعوه من أصاغره فاعتزل إعجابًا بما وصل إليه من العلم والعبادة ، وما يشعر بإعجابه ولا يشك أن الصواب في اعتزاله في قوله وفعله ، ولا يعلم ما قد دهمى به فحينئذ يخالف الشيطان بين أهوائهم ، ويفرق شملهم ويشتت جمعهم ، ويجعلهم أحزاباً ، ويزين عند كل صنف منهم شأنه ، ويصيب عندهم أحوال من يخالفهم ، فأغوى بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عثرات بعض ، ولقن بعضهم حججاً على بعض ، كهيئة الناصح لهم ، فيكيد جمعهم بمكائدهم وما يشعرون . وعسى القوم يبدون ما فى النفوس ، ويطلبون العثرات ، ويظهرون العيوب ، ويتفكّهون بالغيبة ، ويقول الزور ، ويترامون بالبهتان ، ويشد بعضهم على بعض بالعظائم وينسبه إلى الكفر والضلال ، أعاذنا الله وإياكم مما حل بهم ! لإخواني : لو شغل القوم بينهم ، ووضعوا أنفسهم وأنزلوها منازل الاستفادة من غيرهم ، واقتبسوا العلم من أهله لكانوا أولى البلوغ الجيد أجراً . ويحكم لقد بلغ بهم الشيطان فى أودية المكاره ، وغرهم بفنون من الحسنات أوقعهم بها فى باطن السيئات ، وفى النفوس من الموبقات ، ورقى بهم فيما يحسبون إلى الدرجات ، ولقد حطهم بمكائده فى الدركات فجمعهم فى سفينة تتلاطم بهم الأمواج ، وجهلوا أدواء النفوس ، ومكائده الشيطان ، إلا من عصم الله وما يشعرون ، ولعمري لئن أيقظهم من رقدة الغفلة ، ونبههم من حية الهوى ، وعرفوا أدواء السرائر ، والأهواء الخفية ، وتدبروا أمرهم ونصحوا أنفسهم ، ليجدون إخمال الذكر وإخفاء عمل البر لهم أولى وأقرب إلى الله وليجدون النفوس منغصة لتفقد أسوائها ، نافرة من مخالفة أهوائها ، مستحسنة لما ظهر من أعمال برها ، حائثة عن خالص فعلها ، ملبسة عليها أمرها ، مبيغضة لكثير من حقوق ربها متهاونة بالورع فى كثير من أحوالها ، قاهرة لعقولها متقلبة فى شهوات قدرها لم تصيخ خلالها ، مسوفة بالإنابة من أسواء سرائرها ومن تبعات العباد لديها مطوية على أدواء قصر علمهم عنها ، ولم ينتبه القوم من رقدة الهوى ليعرفوا فقرهم إلى الإنابة من أعمال استحسنتها ، والتمسوا عليها ثواباً ، وعسى العقوبة أولى بهم فيها . ألا فاحذروا ما نعت لكم من أدواء النفوس ، ومكائده الشيطان فإن فى القول والعمل المكتوم فينا لهوى وشهوات ، وإرادة فى النفوس كثيرة ، فما ظنكم بأدواء النفوس إذا ظهر العلم والعبادة !؟ يا قوم

فلا تعدلوا بالسلامة شيئاً ، واقبلوا النصيح الشفيق عليكم ، ولا يبتك مثل خبير ، والله شهيد على ما تعملون ، وفقنا الله وإياكم ، لكل خير بمحمد وآله يارب العالمين .

الباب الحادى والأربعون إخلاص الطاعة

إخوانى : وسألتكم عن رغب فى خمولى الذكر ، وأخفى أعمال البر ، أولئك أولو الألباب ، الذين أفادهم الله عز وجل من خزائن علمه ، فكان الغالب على همهم وعزمة قلوبهم وإرادتهم وأمنيتهم ، ألا يطلع غير الله تعالى على شىء من محمود أمرهم ، فما أسروه بالرشاد ، وإن أعلنوا شيئاً فبالسداد ، وهم فى ذلك أصناف : فمنهم من يخفى أعماله ورجلاً من مكائد عدوه الذى يوقعه فى الفتنة ، ويحبط الأعمال ويخيب سعى العاملين ، لو يجد العالم المتحرز سبيلاً إلى أن يسر أعماله عن نفسه وعدوه ، لفعل ذلك خوفاً من أعداء دينه وعجزاً عن مجاهدة نفسه وعدوه ، فلم يعدل بالسلامة شيئاً . ومنهم من يخفى أمره إيثراً لخمولى الذكر ، ورغبة فى فضل ثواب السر مع طلب السلامة ، فأسر أحواله بمجهوده . وقد بلغنا أن بعض أهل العلم قال : « ما أحب أن يعرفنى بطاعته غيره » . وبعد : فإن ظهر أمره بمكان قر بدينه إلى موطن خمولى الذكر - إن وجد إلى الفرار سبيلاً - وقد تحدث أمور يضطر المرء فيها إلى إظهار بعض قوله لحاجته إلى معرفة ما اضطر إليه ، ولحاجة غيره مضطر إليه ، فيبدى على الضرورة بقدر الحاجة مستفيداً ومفيداً يتضرع فى خلال ذلك إلى الله عز وجل فى السلام فى فتنة مظهر منه ، كفعل المحبين لخمولى الذكر فنال ثواب حب الإجمال وثواب السر ، ووصل إلى معرفة ما أراد من العلم ، وهذا على سبيل السلامة من الفتنة بعصمة الله وتأيدته . ومنهم محفوظ بجواهر الفوائد مُسَدِّد فى فعله طاهر فى أحواله بجانب للآثام واللغو متبرئ من الأسواء منزه عن الأدناس ، قبض الجوارح عن المنهيات والتبعات^(٢٦٧) ، ورفض الحرام والشبهات وتطهر من الاغتياب ، وتقلل من الشهوات واقتصر على البلغة من الأقوات ، وجلى الرين^(٢٦٨) عن القلب بالتدبير والاعتبار فعابن ما فى الدارين من الجزاء من السعادة والشقاء وجدَّ فى الهرب فما أبقى وانكمش فى طلب

(٢٦٧) المراد : العواقب ، وما يرتب عليها من أثر .

(٢٦٨) الرين والرآن : الغطاء والحجاب الكثيف ، وجاء فى التنزيل : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

مارجى ، وشغل بهما عن نعيم الدنيا فاحتمل من أجلها النصب ، وتجرع من أجلها المرارة ، وجاهد في الله العدو فلم يصد طرفه عين على معصية علمها ، ولم يلبث ساعة في زلة عرفها ، فاستغفر من كل سيئة جهلها ، ولم يرض من نفسه بالتقصير في رضوان الله ، ولم يهمل نفسه فتغفل عن ربها ؛ فارتقى بعلمه وعمل في الوعيد بقلب موقن بوعيد الله ، هارباً من مساخطه ، خاشعاً مشفقاً وَجِلّاً من عتابه وعذابه ، وعمل في وعده بقلب موقن بثواب الله ؛ راغب مخلص مُجِدِّ منكمش ، وعمل في ضمان الله بكفالة الأرزاق بقلب موقن بوفائه متوكل واثق معتمد . وعمل فيما بُلى من المكارة بالصبر والرضى ، والمعرفة بحسن النظر من الله سبحانه ، والاختيار له . وعمل في تواتر التَّعْمَاءِ عليه بقلب عالم بعظيم النعم ، عارف بتقصيره في الشكر لا يَجْمَرُ شيئاً يتحجب به إلى مولاه ، ولا يستكثر شيئاً يعمل له لربه عز وجل . وعمل في محاب الله بالزهد في الدنيا ، والإيثار على نفسه مسروراً بالمصائب ، فرحاً بالمكارة ، متيقظاً من الغفلة ، كلامه ذكر ، وصمته فكر ، ونظره عِبْر ، عالم بما يحب ويكره ، عالم بما يفضل الخمول للذكر ، وإخفاء العمل ، عالم بفقر العباد إلى حدود الدين ؛ فييدى لهم حاجتهم إليه بمبلغ الحاجة ، وَجِلّاً من كتمانِهِ عِلْمَهُ عن أهله ، مشفق على إرشادهم إذا استرشدوه ، صابراً محتسباً ما اذنبَ إليه العباد ، فإنه بلغنا - والله أعلم - أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى داود - عليه السلام - : « إن صلح على يديك عبد من عبيدى كتبك عندي جهيداً » ^(٢٦٩) ، ومن كتبه جهيداً فلا وحشة عليه ولافاقة ، ياداود لأن تُرْدُ عبداً أبى ^(٢٧٠) منى إلتى أحب إلتى من أن تلقانى بعبادة سبعين صديقاً . فرغب الموقن إلى إرشاد العباد إلى ربهم ، وعمل بالمراقبة لله خاصة نفسه . ونصح لله في خلقه وقام بأمر الله في عباده ، يعمل بعلم نافع وورع صادق ، صبر فيهم على الأذى وكظم لهم وردّ عنهم الغضب ، ولقيهم بالتى هى أحسن ماشاء بهم ، طلق سهل ، متكرم جواد ، قريب متواضع ، لطيف بهم في معاشرتهم ، رفيق بهم في التأديب لهم ، وناظر فيما اشتبه عليهم ، وقبل ما أورد عليه من الحق ، ولان لهم في المذاكرة ، وجدّد لهم ذكر آيادى الكريم ، وقدم إحسانه ، وتواتر النعم على قلة الشكر من العباد ، وذكرهم حلم الإله وتأنيبه بهم على تعرضهم لمساخطه ، وحذرهم بمساخط الله ونقمائه وندبهم إلى التحجب إلى الله عز وجل بمحابه ، فلم يزل في تحجب الله إلى خلقه وتحجب العباد إلى خالقهم ،

(٢٦٩) جهيداً : أى محتضناً ، يقال : جهّد بفلان : امتحنه ، فهو جاهد والمعمول به مجهود وجهيد .
(٢٧٠) أبى : هرب .

ففى الله أحبهم ، وفى الله أبغضهم ، ومن أجله سخط عليهم فعمل برضوان الله فى عباده ولم يعد أمر الله عز وجل فى نفسه خاصة وفى كل أحواله ، فهو العارف بربه عز وجل المتأسى بنبىه محمد ﷺ ، وهو موضع الاقتداء به ، وهو المسدد فى أمره ، والموفق فيما أسر وأعلن من فعله وقوله وقد جاء الأثر بنعته^(٢٧١). بلغنا أن بعض القارئین تلا هذه الآية : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٢٧٢) قال : هذا حبيب الله هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى الدنيا دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فى دعوته ، وعمل صالحاً فى إجابته ، وقال : إننى من المسلمين ، إن هذا خليفة الله^(٢٧٣). إخوانى هذا نعت المرسلين والخلفاء المهديين فهذا الوصف لا يليق بنا ، ولا يشبه أمثالنا ، فلا تجهلوا أمركم ، وتذكروا الذى تعلمون من أسوء أنفسكم ، واتنبهوا من الغفلة التى دهتكم ، فإن أخذ الإله عليكم فإنكم بالرجم أولى من الاقتداء بكم ، فاقبلوا نصيح الشفيق عليكم ، فأسروا أمركم بمجهودكم ، وارغبوا فى خمول ذكركم ؛ فإن السلف الصالح لم يعدلوا بالسلامة شيئاً ، وهم الأخيار فى زمان الأخيار ، وكيف بكم من نفاية الأمة بين صرع الدنيا . وبعد فلو وافق الأخيار دهركم هذا ؛ لكانوا أشد منكم فراراً ، وأبعد آثاراً . وقد قال بعض أهل العلم : « لو أن رجلاً من السلف الصالح نُشير من قبره ، فنظر إلى قرائكم ما كلمهم ، ولقال لسائر الناس : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب » . وعن بعضهم قال : « لا خير فى الذكر إذا أعلن » . وياقوم فارغبوا فى خمول الذكر ، ولا تعدلوا بالسلامة شيئاً .. وهب الله لنا ولكم السلامة فى جميع أحوالنا . آمين يارب العالمين .

تم بحمد الله وعونه
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(٢٧١) أخرج أبو داود وأحمد عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال : « من أعطى الله تعالى ، ومنع الله تعالى ، وأحب الله تعالى ، وأبغض الله تعالى ، وأنكح الله تعالى ؛ فقد استكمل الإيمان » ، وفى لفظ آخر « من أحب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان » ، انظر : مسند أحمد (٤٣٨/٣) وسنن أبى داود - كتاب السنة - باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه .

(٢٧٢) فصلت : ٣٣ .

(٢٧٣) سبق تخريجه .